إنجلترا والإمبراطورية الرومانية قبل الغزو السكسوني

أ.د. أسامة إبراهيم حسيب إبراهيم (*)

أولا:- أوضاع إنجلترا قبل الغزو :

تتكون الجزر البريطانية من جزيرتين كبيرتين هما بريطانيا العظمي وإيرلندا، ثم عدد من الجزر المبعثرة هنا وهناك وتمتد تلك الجزر بين خطي عرض ٥٠، ٦٠ درجة شمالاً، وتقع في الشمال الغربي من أوربا غير بعيد عنها، وكل ما يفصلها هو بحر الشمال يقع بينها من جهة وبين النرويج والدانمرك وألمانيا وهولندا من جهة أخري، ثم القنال الإنجليزي – English Channel - يفصلها عن فرنسا، والذي يضيق في الشرق حتي يصبح عرضه نحو ٢١ ميلا، ويعرف باسم مضيق دوفر Dover وتنقسم الجزر البريطانية من حيث التضاريس والمناخ إلي قسمين: قسم من أراضي سهلة في الجنوب والشرق أي إنجلترا ولا يزيد ارتفاع أعلي أجزاء هذا السهل الإنجليزي المنبسط علي الآلف قدم (٣٣٠ مترا) ويمتد نحو الغرب في الداخل حتي مقدمة مرتفعات ويلز، ويحتل هذا السهل أكثر من ثلث بريطانيا العظمي، وهو كأحسن جهاتها مناخا فهو ليس غزير المطر كما في الغرب، وليس شديد البرودة كما في الشمال ويسكنه نحو ثلثي سكان بريطانيا كلها، وفي الجزء الشمالي منه وحول جبال البنين الجنوبية توجد أهم مناجم الفحم في بريطانيا ومعظم حديد الجزيرة، ويهرع إليه المهاجرين باستمرار من الشمال والغرب. أما القسم الآخر فهو أراضي مرتفعة في الغرب والشمال أي ويلز واسكتلندا [١].

وبريطانيا قديما كان يطلق عليها البيون – Albion– وهي جزيرة في المحيط، وتقع إلي الشمال الغربي في مواجهة ألمانيا وبلاد الغال وأسبانيا، وهي تكون الجزء الأكبر من أوربا برغم بعد المسافة بينها وبين تلك البلاد، وتمتد الجزيرة من الجنوب إلي الشمال لمسافة ثمانمائة ميل وعرضها مائتان ألف وثمانمائة وخمسة وسبعون ميلا [٢].

(*) أستاذ تاريخ العصور الوسطى – كلية الآداب – جامعة سوهاج.

١ - نظير حسان سعداوي : تاريخ إنجلترا وحضارتها في العصور القديمة والوسطي، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٨، صـ٢ .

٢ - Bede's Ecclesiastical History of the English people Bertram colgrave and R.A.B .Mynors .oxford ,1969 ,vol II,pp133-135 Wood ward History of England, London , 1997,p .2.

وفي بداية الأمر كان سكان الجزيرة من البريتون –Britons[1]- ومنهم عرفت الجزيرة بأسمها بريطانيا، ويقال أنهم أبحروا إليها من بلاد أرموريكا، واختاروا لأنفسهم الجزء الجنوبي من الجزيرة [2]، والجزيرة غنية بالمحاصيل والأشجار وبها مزارع خصبة للماشية ودواب الحمل، وتوجد بها أشجار الكروم في مناطق معينة وبها وفرة في الطيور البرية والمائية، ومما يلفت النظر ما بها من أنهار تذخر بالأسماك وبخاصة السلمون، وثعابين البحر، وما بها من ينابيع غزيرة الإنتاج؛ وكثيرا ما يتم صيد عجل البحر والدرافيل بل والحيتان، بالإضافة إلي ذلك يوجد بداخله اللؤلؤ الممتاز من كل لون الأحمر والأرجواني والبنفسجي والأخضر، بيد أن اللون الأبيض هو الأكثر، وهناك وفرة تفوق الحد في القواقع البحرية، التي يستخرج منها صبغ قرمزي اللون، وهو لون أحمر غاية في الجمال، ولا يتأثر عندما يتعرض لحرارة الشمس أو الأمطار، إذ أنه كلما تعرض للبرودة كلما أزداد جمالا. وفي البلاد عيون للمياه المالحة، وأخري للمياه الدافئة، وتناسب منها الأنهار التي تغذي الحمامات الساخنة والتي تناسب كل الأعمار من الجنسيين، والبلاد الغنية لعروق الفلزات مثل النحاس والحديد والرصاص والفضة تنتج قدرا كبيرا من الكهرمان الأسود اللامع المصقول، والذي يشتعل إذا ما وضع في النار وعندما يتوهج يساعد علي طرد الأفاعي بعيدا وعندما يصبح دافئا بفعل الاحتكاك المستمر، فإنه يجذب إليه أي معدن يوضع ملاصقا له، كما تفعل مادة الكهرمان البني اللون والضارب إلي اللون الأصفر تماما وفي وقت ما كانت البلاد مشهورة

---

[3]- البريتون : ترجع تلك التسمية إلي القائد الطروادي بروتس –Brutus- والذي دخل في قتال مع الأغريق عقب مصرع ولديه علي يدهم، وهزمهم وطاف هو وجنوده الطرواديين في موانى البحر المتوسط لمدة اثنين وأربعين عاما، استقر بعدها هو وصديقه كورينيوس - corneas- في بلاد الغال، ثم انتقل إلي جزيرة ألبيون (بريطانيا) المواجهة له، واستقر هو وجماعته فيها ، بعد القضاء علي ثورات سكانها من العماليق، واستقروا بها لما وجدوه من مياه عزبة وثروات زراعية وحيوانية، واستوطن الطرواديين الجزيرة وزرعوا أراضيها وبنوا بيوتهم فيها، وتخليداً لاسم بروتس أطلق علي الجزيرة اسم بريطانيا –Baritones- ولغتهم البريطانية -British-أما صديقه كورينيوس فقد عرف الأقليم الذي حكمه باسم كرونول –CornwalL نسبة إليه، وتؤكد المصادر بناء بروتس عاصمة جديدة له علي نهر التايمز – Thames– عرفت فيما بعد بلندن – London- انظر في ذلك :

- London Museum catalogue .vol 3, 1930, p 138 ; Monmouth , G., the History of the kings of Britain trans by Lewis Throop ,London ,1978 ,pp.53-73.

Bede ,the History of the English church & people trans by Leo Shirley ,London 1968, p. 37 .

[2] - Bede ,the History of the English church, p. 37.

بمدنها الثمانية والعشرين، بالإضافة إلي الأماكن المحصنة الكثيرة التي كانت تحميها الأسوار والأبراج القوية والبوابات والأقفال[١].

وتقع الجزر البريطانية من الناحية المناخية ضمن الأقاليم المعتدلة الباردة، التي يسميها العالم الجغرافي فلير – H.O. Fleure- " إقليم العمل وبذل الجهد " لأن الإنتاج هنا يتطلب من السكان كل مجهود للحصول علي الثروة الموجودة، والمناخ من النوع الإعصاري فثمر الأعاصير وما يصاحبها من رياح هابة في كل الاتجاهات بالجزر البريطانية، مما يجعل المناخ كثير التقلب والتغيرات السريعة مع اختفاء البرودة الشديدة، والسماء دائما قاتمة محمله بالسحب والمطر، وهذا يؤدي إلي نشاط السكان ويعدهم لتحمل أنواع مختلفة من المناخ في خارج بلادهم دون أن يؤثر ذلك في صحتهم. وهو من أحسن أنواع المناخ ملائمة لرقي الإنسان وتقدم حضارته، فهو بارد أحيانا وتساعد برودته الإنسان علي النشاط الجسماني، ثم هو غير شديد الحرارة في الصيف، فلا يقلل من النشاط العقلي، أي أنه ينمي القوي العقلية والجسمانية ويقويها [٢] ولم تكن الشمس تري أكثر من ثلاث ساعات أو أربع حتي في اليوم الصحو [٣].

والرياح السائدة بصفة عامة هي الغربية والجنوبية وهي رياح دفيئة، ساعدت هي وتيار الخليج الدافئ علي جعل المواني البريطانية مفتوحة طول العام، والمطر بطبيعة الحال أكثر في الغرب منه في الشرق، ويزيد في هذا الاختلاف وجود مرتفعات في الغرب والسهول في الشرق، ولهذا يتدرج متوسط المطر بين ٢.٥متر في بعض الجهات الجبلية إلي ٠.٥متر في بعض جهات أيست أنجليا –East Anglia- وأدت غزارة الأمطار مع فقر التربة في الغرب والشمال الغربي إلي تجمع السكان في الأجزاء الشرقية والوسطي، وكذلك يتجمع سكان إيرلندا في الجنوب الشرقي منها، ولقد أدي تركز معظم سكان الجزيرة البريطانية في الأجزاء الجنوبية الشرقية، واعتمادهم علي المواد الخارجية في الغذاء والمواد الخام أن أصبحت الأجزاء البحرية المجاورة لها أهم أجزاء الماء المحيط بالجزر، ومنها صارت كل الغزوات القديمة من رومان وأنجلو سكسون وادنيين، وهددت سلامة البلاد وسكانها ومازالت حتي اليوم مصدر الخطر الرئيسي عليها[٤].

---

[١] -جوزيف داهموس : سبع مؤرخين في العصور الوسطي، ترجمة محمد فتحي الشاعر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٩، صـ٥٨-٥٩.

-Bede's History ,Vol.II ,pp.133-135 ; John Richard Green ,short History of the English people , London, 1929 ,pp.1-2.

[2]- Trevelyan G.M, History of England ,London ,1936 ,p. 63.

[٣] - ول ديورانت : قصة الحضارة، ترجمة محمد بدران، جـ٣، م ٣، صـ٥٣.

[٤] - نظير حسان سعداوي : المرجع السابق، صـ٤.

أما الجزر المحيطة ببريطانيا ومنها اسكتلندا، فتحتل الثلث الشمالي من الجزيرة ومعظم أراضيها جبلي، فتحتل مرتفعات اسكتلندا الأجزاء الوسطي والشمالية الغربية منها، وتمتد المرتفعات الوسطي من بريطانيا العظمي في جنوب اسكتلندا، ويوجد سهل اسكتلندا من المجموعتين الجبليتين، وفيه تقوم كل المدن الكبري ما عدا أبردين ويعيش فيه نحو ٩٠% من مجموع سكان اسكتلندا مع أنه لا يتجاوز ٢٠% من مساحتها وتشمل اسكتلندا ١/٦ سكان الجزيرة تقريبا، وتقع إيرلندا الجزيرة الثانية إلي الغرب من بريطانيا ويفصل بينهما البحر الأيرلندي وتقترب الجزيرتان بعضهما من بعض خمس مواضع [١].

وفي المحيط الأطلسي الشمالي توجد هذه الجزيرة السحرية الجميلة – بريطانيا – حيث كانت في وقت من الأوقات جزءا من قارة أوربا إلى أن قرض البحر المحيط بها في ثورانه العارم منذ تسعة آلاف عام الأراضي الواطئة التي كانت تصل الجزيرة بالقارة، ثم اندفع يغمر المنطقة الفاصلة مكونا قناةً بحرية غاية في الضيق يجعل في الإمكان حين يكون الجو صافيا رؤية الشاطئ الأخر في سهولة من بعض الأماكن علي الجانبين وفي أوقات معينة، ولقد كان لهذا البحر الذي يجرف شواطئها وتنوح أمواجه علي أطرافها أثر سحري في أراضيها وتاريخها. ومن خلال غاباتها ومستنقعاتها يتدافع ضباب البحر في قتام شديد مجمعاً في الأفق أشكالا غريبة توحي بالغموض، وتبعث علي العجب والدهشة [٢].

ومن هذه الجزيرة الرطبة تنبثق أشجار البلوط لتغطي الجزيرة بالغابات الخضراء الأصيلة، حيث تصدح البلابل، وخلال السهول ذات المروج المزهرة تتدفق الأنهار الهادئة في رفق إلي البحر، وفي ومضات قصار تشرق الشمس من خلال الضباب فتمس بذهبها الوهاج حافات التلال وأطراف السحب المتدافعة، ثم لا يلبث الضباب أن يعود فيلف بنقاب كثيف من الغموض والرهبة الغابات والمروج الخضراء النضرة [٣].

أم المنطقة الغربية والتي تمتد بين السواحل الجنوبية لايرلندا والساحل الشمالي لبريطانيا، فعن طريقها تصل معظم الواردات وخاصة الحبوب والموارد الخام الآتية من جهات العالم الجديد، ولذا فإن سلامة حركة المرور في هذه المنافذ الغربية ضروري جدا لحياة سكان الجزر البريطانية، كما كان لحماية الأجزاء الشرقية أهمية كبري في الدفاع عنهم ضد الغزو الأجنبي [٤]، ومعني ذلك أن الغزاه يسلكون أحد طريقين من القارة إلي الجزر البريطانية، وأولهما عبر المسطحات المائية الضيقة - The Narrow Seas- التي يختلف أتساعها من

---

[١] - محمد عبد المنعم الشرقاوي ومحمد محمود الصياد : هذا العالم، دار المعارف،١٩٥٨ , صـ١٩.

[٢] - جيمس دوورتي : الماجنا كارتا، ترجمة مصطفي طه حبيب، مراجعة زكي نجيب محمود الأنجلو المصرية، ١٩٦٥، صـ١٧.

[٣] - جيمس دوورتي :المرجع السابق، صـ١٧.

[٤] - محمد عبد المنعم الشرقاوي : هذا العالم، صـ٥١.

جهة إلي أخري علي طول بحر الشمال والقنال الإنجليزي، وثانيهما من موانى البحر الأبيض المتوسط وأسبانيا إلي موانى القنال الإنجليزي، أو إلي موانى الطرف الجنوبي الغربي والبحر الايرلندي (مثل برستول) ثم الطواف حول أسكتلندا إلي اسكندناوه وأكثر الغزاه في عصر ما قبل التاريخ جاءوا من هذا الطريق الأطلنطي. كما وصلت الحضارة الأوربية القديمة إنجلترا عن هذا الطريق[١].

أما عن التكوين الجغرافي للجزر البريطانية، فلم يكن العالم كله معروفا للإغريق القدماء رغم معرفتهم الكروية للأرض، بل كان عالمهم مركز البحر المتوسط. ومن ثم كانت الجزر البريطانية واقعة علي هامش ذلك العالم حتي العصور الوسطي، ولم يكن معروفا منها إلا الجزء المواجهة للقارة الأوربية، ولهذا حملت بريطانيا كلها اسم ألبيون، وهو اسم الحافات الطباشيرية التي تقع في الجزء الذي كان معروفا. وظلت إيرلندا واسكتلندا وخاصة الأجزاء الشمالية عقب تقهقر الجليد وجلبوا معهم الحيوانات الضارية والخيول والخنازير والطيور والأزهار والأشجار بأنواعها وحين قدوم هذه الهجرة البشرية الأولي، والتي عرفت باسم الهجرة البيكرية –Beaker Folk- كانت سلسلة الجبال الطباشيرية لدوفر وكاليه، لا تزال تكون وحدة متصلة، ويصب نهر التايمز في الراين، والظاهر أن ايرلندا تم انفصالها عن إنجلترا قبل إنفصال الأخيرة عن القارة وقبل حدوث بوغاز دوفر، مما يفسر فقر ايرلندا في النباتات والحيوانات، كما يفسر وجود مرتفعات في غرب إنجلترا وشمالها وللسهول والأنهار الصالحة للملاحة في شرقها[٢].

علي أن البعض يري أن اقدم حضارة وصلت إلي الجزيرة البريطانية هي الحضارة الميجاليثية – Megalithic Culture– الواردة من حوض البحر المتوسط عبر الطريق الأطلنطي، حملها معهم الملاحون المهاجرون من شعوب ذلك البحر المتوسط، وعلي الخصوص الأيبيريون المعروفين ببشرتهم السمراء وشعرهم الأسود بالسير عن طريق سواحل أسبانيا والبرتغال وفرنسا بين ٢٥٠٠ ، ٢٠٠٠ عام ٨٥ ق. م تقريبا أي خلال العصر الحجري والعصور البرونزية، ثم انتشرت تلك الحضارة بالبحر الايرلندي وعلي طول شواطئ بريطانيا الغربية، حتي وصلت الطريق الشمالي لشبه جزيرة اسكندناوه. وعاش الأيبيريون معهم وهي مزاولة حرفة الصيد والرعي وطرق استئناس الكلب والغنم والماعز والثعلب

[1]- Carter , History of Britain ,London ,1934, vol .1 ,p.2.

[٢] - محمد عبد المنعم الشرقاوي : هذا العالم، صـ٤٨.

- Trevelyan, op. cit, p. 2.

والخنزير، وحرفة الصناعة والزراعة والأشغال ببناء السفن، والاتجار مع قبائل القارة، وإقامة الموانى للإتجار في الذهب مع ايرلندا [١].

وفي هذه الجزيرة الجميلة كان وحيد القرن الأبيض ذو القرن الذهبي يرعي الكلأ المختلط بالأزهار المثبثة، وكانت أونا الجملية مع حارسها الأسد تتجنب التنين ذا الحارشيف الذي يلفظ اللهب مع انفاسه وفي هذه الأرض استمع الناس إلي الموسيقي السماوية، ونسجوا من الأساطير قوافي وألحانا، وفيها غني شعراء عظام أناشيد سرمدية خالده [٢].

والحقيقة أن أصل الحضارة الأيبيرية المنقولة إلي الجزر البريطانية شرقية حملها التجار القدماء من مصر وكريت والعراق عبر البحر المتوسط إلى مجموعة الجزر في أقصي البحار الشمالية. أي أن تجارة الجزر البريطانية مع دول شرق المتوسط أقدم من الغزو الكلتي لها، والدليل الآثري علي ذلك العثور علي حجر الكهرمان الإنجليزي الأسود في أسبانيا حوالي ٢٥٠٠ ق.م وعلي العقود المصرية المختلفة في إنجلترا حوالي ١٣٠٠ ق.م، يؤكد أن تجار البحر الأبيض المتوسط هم أول من أكتشف الجزر البريطانية منذ فجر التاريخ، وان كانت القبيلة في هذه الجزر هي وحدتهم السياسية وتتكون من أعداد قليلة متماسكة[٣].

ويؤكد هذا القول علماء الأجناس حين يرجعون تعمير الجزر البريطانية إلي جنس البحر المتوسط، وإليه ينتمي المصريون والسوريون، وكثير من سكان الهند الحاليين والجزر البريطانية، ولازالت بقاياه اليوم في كورنوول وويلز وغرب إيرلندا. ووطن جنس البحر المتوسط هو المنطقة الذي أخذ منها اسمه، وهناك من الأسباب ما يجعل من حق المصريين انهم أول من سطر أسس الحضارة الحالية من زراعة ورعي وصناعة ونسيج ومعادن وفخار، ومن ثم أخذت هذه الأسس طريقها إلى الجزر البريطانية وغيرها من جنس البحر المتوسط، الذي هو أصل المصريين والبريطانيين معا [٤].

ومنذ العهود السحيقة التي سبقت التسجيل التاريخي كان الكهنة الدرويديون من الوثنين الإنجليز يقيمون نصباً من الأحجار الضخمة في شكل دائري غامض قربانا للشمس والنجوم فوق المستنقعات المنعزلة ويخضعون مذابحهم بدماء بشرية في فدي مرعب ومخيف، ومنذ العصور المظلمة حين كانت هذه الجزيرة التي هي قطعة من الجنة مطمع أنظار الناس ومحط مطامعهم الواسعة، فكانت خلال مئات السنين تكتسح شواطئها الواطئة موجات تلو موجات

---

[١] - نظير سعداوي : المرجع السابق، صـ٥-٦ .

[٢] - جيمس دوورتي : المرجع السابق، صـ١٨.

[3]- Trevelyan ,op ,cit ,p. 7.

[٤] - بيبي : قصة البشرية : ترجمة محمد متولي ومحمود موسي، مطبعة الفكر، صـ٥٢.

من الغزاه الفاتحين والسلابين والنهابين يطئون أرضها ويصعدون في أنهارها إلي أن يصلوا إلى قلبها، فيعملوا فيها القتل والتحريق. ولقد تعرضت هذه الجزيرة لغزوات الكلتيين البريتون ثم البكت والرومان ومن بعدهم السكسون والفايكنج ثم الدنماركيين والنورمانديين، ونزلوا جميعا أرضها فوجا بعد فوج ونهبوا خيراتها ثم استقروا فيها قرون طويلة وعلي مر الزمان رويداً رويداً اختلط هؤلاء الناس وتزاوجوا غزاه مقهورين وكونوا أمة واحدة، وأصبحوا شعبا واحدا خلع عليه التمازج عناء أكثر بما أخذه من كل عنصر اختلط فيه[١].

والحقيقة أن الموقع كان من أهم العوامل التي أثرت في تكوين الشعب الإنجليزي، وأصبح الشعب والجزيرة هما العنصران الأساسيان في التاريخ الإنجليزي، إذ جعل الموقع الجغرافي الجزيرة في متناول كل قادم علي غزوها. وتعرض الجزيرة للغزو جعل حضارتها تبدو وكأنها طبقات من حضارات بعضها فوق بعض. كما جعل سكانها أخلاطا يسيطر عليها بحضارته أخرها قدوما إلي الجزيرة، بحيث تكون الحضارة الجديدة أوضح معالم بالقسم الشرقي من الجزيرة غنها بالقسم الغربي وهكذا تحكمت الجغرافية في تاريخ الجزيرة طول عصوره المتعاقبة، إذا لو أن سلسلة الجبال امتدت علي طول الشواطئ الجنوبية والشرقية للجزيرة بدلا من امتدادها غربا وشمالا لتعزرعلي القبائل الغازية من القارة، أن تنزل بالجزيرة في دفعات متتالية ومن أجناس مختلفة [٢].

وحوالي ٦٠٠ ق.م أي في أثناء عصر المعادن جاءت هجرة ثالثة من القارة الأوربية إلى الجزر البريطانية، وفرضت سلطانها ولغتها وحضارتها علي أهل البلاد الأصليين من سلالات الهجرتين السابقتين هذه الغزوة الجديدة تنسب لشعب قديم أسمه الكلت [*]، وهم من نفس الجنس الذي ينتسب إليه قبائل الغال

---

[١] - جيمس دوورتي : المرجع السابق، صـ١٨.

[٢] - نظير حسان سعداوي : المرجع السابق، صـ٧.

*- الكلت –Celts- تشير إليهم المصادر القديمة سواء كانت لاتينية أو إغريقية، استوطنت أوربا في النصف الثاني من الألف الأول قبل الميلاد، حيث استخدم الرومان لفظتي كلتي –keltoi- وغالي –Celli-Gaul- وفي الأزمنة التالية عبارات الكلت، وهي عبارة واضحة استخدمت مثل الجماعة الكلتية –Celtic fringe- وأطلق علي كلت بريتاني وبني جلدتهم كلت بريطانيا، وكلت ايرلندا –Ireland- ولقد حافظ هؤلاء وهؤلاء علي ثقافتهم ولغتهم القديمة حتي عصرنا هذا. مما يؤكد ما وصل إليه المؤرخين بشأن اشتقاق من اسم بريطانيا من كلت بريتاني، وأن أيد كثير من المؤرخين هذه الرواية أكثر من رواية بروتسي السابق ذكرها وأن ذكر في حوليه –laud- خطا يؤكد مقدم كلت بريتاني من إقليم أرمينيا –Armenia – وهو في أسيا الصغري، ولكن المقصود هو إقليم أرموريكا السابق ذكره، وهو الاسم القديم للإقليم بريتاني ويقع في شبه الجزيرة الواقعة بين القنال الإنجليزي وخليج بسكاي.

انظر في ذلك :

التي استقرت في فرنسا وشمال إيطاليا وشمال غرب ألمانيا والأراضي المنخفضة، وأصلهم من أواسط أسيا هاجروا إلي بلاد اليونان ثم انتقلوا إلى إيطاليا , وزحفوا غربا حتي سواحل المحيط الأطلسي حيث أقاموا , ويذكر –رواس – في هذا الصدد أن العنصران الرئيسيان في التاريخ الإنجليزي هما التيوتون، والكلت فالمقصود بالتيوتون مجموعة الأقوام التي وفدت علي الجزيرة من سواحل بحر الشمال وهم الإنجليز والسكسون والدانيون والشماليون أما الكلت فيشملون الأقوام الذين جاء معظمهم إلي الجزيرة عبر المانش، وكذلك الأقوام التي ترجع أصولهم إلي حوض البحر المتوسط أي الأيبيريين بالجزيرة قبل الكلت، فلما جاءهم الكلت فرضوا عليهم لغتهم ونظمهم، ثم أنهضهم الكلت أنفسهم في الأيبيريين علي مر العصور ومع هذا فقد دأب مؤرخو القرن التاسع عشر علي اعتبار الشعب الإنجليزي كأنه مذيج من الإنجليز والسكسون فحسب والحقيقة أن شعب أنجلو كلتي، وانه أقرب شبها في تكوينه إلي الشعب الفرنسي منه إلي الشعب الإنجليزي بغض النظر عن اختلاف النسبة في التخليط [١].

بينما يشير –فشر- أن الكلتيون قدموا إلى إنجلترا في موجتان الأولي: الكلتيون الجبليون –Gaelic- سكان الجبال الأسكتلندية من ذوي الشعر الأصهب والأسلحة المصنوعة من البرنز وقد وصلت هذه الموجه إنجلترا فيما يظن حوالي ١٢٠٠ق.م، والثانية: الكتليون البريتونيون –Brythonic- الذين أقبلوا من داخل القارة حوالي ١٠٠ ق.م فيما يظن وطردوا أبني عمومتهم من جنوب بريطانيا وشرقيها، واستقروا ببلاد الغال وكورنوول، وعرفوا بأسلحتهم المتخذة من الحديد وإلي هذه الموجه الثانية تنسب بريطانيا اشتقاقا من أسمهم، أقتفي أثرهم من قوم من البليج –Belgae- من شمال فرنسا واختلطوا بهم[٢].

ويؤكد المؤرخ –راينر – أن قبائل الكلت الجبلية غزوا الجزر البريطانية في القرن السادس الميلادي وأرجع أصلهم إلي العناصر الهندو أوربية والذين تدفقوا علي الجزيرة من غاله [٣].

- Laud chronicle; the Anglo Saxon chronicle ,ed. G.N. Garmonsway , p. 3 , Monmouth ,op .cit , p.53 ; Chadwick N. , the Celts , London, 1976 , p 17; Bede , of History English church , p.37.

- مصطفي الكناني : الغزو الجرماني للجزيرة البريطانية، مؤسسة الثقافة الجامعية، ١٩٩٢، صـ٢١؛ محمد مرسي الشيخ، الممالك الجرمانية في أوربا العصور الوسطي، الإسكندرية، ١٩٧٥، صـ٢١٧-٢١٨.

[١] - أ.ل. رواس : التاريخ الإنجليزي، ترجمة محمد مصطفي زيادة، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٤٦، صـ٢.

[٢] - فشر : تاريخ أوربا العصور القديمة، ترجمة إبراهيم نصحي وآخرون، دار المعارف، ١٩٥٠، صـ٣٨.

[3]- Rainer Concise , Hist. of Britain, London , 1939 , pp. 1-2.

وفي الوقت الذي غزا فيه السكندر الأكبر المقدوني الشرق أي حوالي ٣٣٠ ق.م غادر بيثياس الماسليوتي –Bytheas Massiliot – الإغريقي سرا مدينة مرسيليا، وعبر المحيط الأطلنطي إلي بريطانيا حيث نزل كورنول –Cornwall- وبعد أن ذوده مواطنوها بالمعلومات عن مصادر الحديد والصفيح، اتجه إلي بلده كنتياي – Cantil - في مقاطعة كنت –Kent- فوجدها غنية بزراعتها وتجارتها وخاماتها المعدنية من النحاس والحديد والقصدير والرصاص. كما وجد صناعتها المنزلية كافية لإيجاد تجارة ناشطة بين القبائل التي تسكنها ومع القبائل الأوربية [١] ومن ثم سار بيثياس مع الشاطئ الغربي للجزيرة حتي وصل الطرف الشمالي لاسكتلندا وجزر شتلند ورجع عن طريق بحر الشمال فنهر الراين مخترقا غالة إلي مرسيليا وسجلت رحلته أول احتكاك بين الحضارتين الإغريقية والكلتية، وبانت مؤثرات الأولي في الثانية، حيث قلدت القبائل البريطانية الجنوبية ملوك مقدونيا في ضرب نقودهم من البرنز والذهب حوالي ١٥٠ق.م [٢].

وحافظ الكلت علي نظامهم القبلي المورث، فبقيت قبائلهم وعشائرهم متصلة بعضها بالبعض الأخر بروابط شرعية وعاطفية صارت أساسا خلقيا لمجتمعهم، واعتبروا ملوكهم رؤساء عشائر أكثر منهم ملوكا إقطاعيين , ووقعت أكثر أقاليم الحضارة الكلتية تقدما في الجنوب والجنوب الشرقي حيث المراعي والأراضي الخصبة ومناجم الحديد والموانى الصالحة لرسو السفن، وطرق الملاحة الميسورة مع تجار البحر المتوسط والقبائل الكلتية الأخرى فيما وراء البحار، وأنقسم المجتمع الكلتي إلى ثلاث طبقات: عامة الشعب ويعملون كالعبيد تماما، والأشراف ويحكم كل منهم مقاطعة مستقلة، ثم رجال الدين ويقسمون إلي ثلاث رتب، اختصت الأولي بتنظيم الأشعار، والثانية بالترتيل والإنشاد علي القياثير، والثالثة وتعرف بالدرويد – Druldes– وهم الكهنة أصحاب السلطة الفعلية في البلاد، وأمناء دين الكلت ووظيفتهم الاشتغال بالدروس العقلية ويعرف مذهبهم الـ Druuidism- للمواطنين: أنشئوا المعابد لعبادة الصخور والأحجار والينابيع والأشجار، واتخذوا غابات شجر البلوط المظلمة مقرا لها يقدمون فيها القرابين الآدميين لمعبودهم المريخ، ولزعمهم أن الآلهة لا تسر إلا بالدم. وأمنوا بالثواب والعقاب عند الموت ونادوا بتربية الأبناء تربية حسنة، وحضهم علي عمل الخير، وعدم قتل النفس، وتشبه ديانتهم أديان أهل الشرق كالهنود وغيرهم لأن عادة إحراق جثث الأموات التي زاعت بينهم مأخوذة في الغالب عن الهنود[٣].

---

[١] - ول ديورانت :المرجع السابق، جـ٣، م٣، صـ٥٤-٥٥.

[٢] - نظير حسان سعداوي : المرجع السابق، صـ٩.

- Trevelyan , op .cit., p.10.

[٣] - نظير حسان سعداوي : المرجع السابق، صـ١٠.

وأعطي المجتمع الكلتي للنساء الحرية في اختيار أزواجهن وكن يأتين رجالهن بالمهر كالعادة المتبعة اليوم عند الغربيين، وإذا أراد الأب أن يزوج أبنته يدعوا جمهور من الشباب إلي مسكنه، فتخرج عليهم الأبنة وبيدها كأس ملأي بالخمر، فمن تناول الكأس من الحاضرين يكون عريسا لها، وللرجل التسلط المطلق علي المرأة وعلي أولاده، وله حق التصرف في حياتهم جميعا، وغلب علي عوائد الكلت وملابسهم وأطعمتهم الخشونة والبساطة كسائر الأمم القديمة واتصفوا بالحماسة والحدة والشجاعة والكرم والسخاء والقيام بحق الضيافة ينجدون كل من يحتمي بهم وأسلحتهم من أنواع البلطات والحراب الكبيرة غير المدببة والأقواس والنشاب يتسر بلون بالدروع وعلي رؤوسهم الخوز، وأتراسهم كبيرة جدا تسترهم من الرأس إلي القدم، واستبد الدرويد بالشعب الكلتي استبدادا قويا في جميع نواحي الحياة الثقافية والقضائية والإدارية و الاقتصادية [١].

والحقيقة أن أكثر جهات الجزيرة صلاحية للغزو والإقامة هي الجهات التي كانت أقرب للغزاة، وأن استقرار أولئك الغزاه قد حال بين الجهات الغربية والشمالية من الجزيرة وبين قارة أوربا، ويشبه ذلك تمام وضع أيرلندا بالنسبة إلي الجزيرة البريطانية بمثابة حاجزين أيرلندا والقارة الأوربية، وقد نتج عن تلك الخصائص أن الجهات السهلية بالجزيرة البريطانية انطبعت بما أتي عليها من مدنيات جديدة علي حين أن وصل من تلك المدنيات إلي الجهات المرتفعة قد تشرب فيما سبق إليها من مدنيات، أي أن الجهات المرتفعة طردت كل دخيل عليها، أو نجحت في تحويله إلي شبه ما بها، مما جعل مدنية الجزء الغربي من الجزيرة متصل الحلقات مطبوعا بروح المحافظة علي القديم [٢].

وكان من أهم الشعوب التي غزت ايرلندا هم البكتيين –The picts- وعند وصول الغزاة –البكتيين – إلي إيرلندا رفض الايرلنديين السماح لهم بالإقامة علي الأراضي الايرلندية بسبب أن الجزيرة الايرلندية صغيرة للحد الذي لا يجعلها تتسع لهم وللغزاة وطلب أهالي إيرلندا من البكتيين أن يذهبوا إلي " جزيرة مجاورة لهم تقع في الاتجاه الشرقي، والتي يمكن لهم وهم في ايرلندا أن يشاهدونها عن بعد وخاصة في الأيام التي لا يوجد بها ضباب كثيف "، وبعد رفض الايرلنديين بقاء البكتيين في أراضيهم أبحروا إلي الشرق واتخذوا موطنهم في الأرض الواقعة شمال نورثمبريا –Northumbria- [٣].

وفي وصف – بيده – لإيرلندا يجمع بين الحقيقة والإشاعة التي لا أساس لها من الصحة، وهو الأمر الذي ميز كتابات الحوليات في العصور الوسطي كثيرا

---

[١] - إسماعيل سرهنك: حقائق الأخبار عن دول البحار، جـ٣، القسم الأول، ط١، ١٩٢٣، ص ٩ ؛ جوزيف نسيم يوسف: تاريخ انجلترا في العصور الوسطى، الإسكندرية، ص ١٦-١٨.

[٢] - رواس : المرجع السابق، صـ٥-٦.

[3]- Bede's History , vol., 1 , pp. 15-16.

" أن ايرلندا أكثر اتساعا من بريطانيا ومناخها أكثر اعتدلا لدرجة أنه من النادر بقاء الجليد بها أكثر من ثلاثة أيام. ولا يحصد البرسيم أبدا في فصل الصيف بغية استخدامه في فصل الشتاء، كما لا توجد بها حظائر للدواب والماشية، ولا توجد زواحف في ايرلندا ولا تستطيع الثعابين السامة أن تعيش هناك وعلي الرغم من انتقال الثعابين من بريطانيا إلي ايرلندا فإنها كانت تموت علي وجه السرعة لتأثرها برائحة الهواء، وفي الحقيقة فإن كل شئ تقريبا مما تنتجه أرض ايرلندا له تأثير شديد ضد السم، وعلي سبيل المثال فقد شاهدنا كيف أنه في حالة إذا ما عاني أحد الأفراد من عضة ثعبان فإن أوراق المخطوطات من ايرلندا كان يتم كشط ما عليها من أثار الكتابة، ثم يوضع ما تم كشطه والمزابة في الماء، والتي شربها المصاب علي تسكين الورم وعلي منع حدة انتشار السم وتزخر ايرلندا بالبن والعسل ويوجد بها أشجار الكروم والسمك والطيور وهي مشهورة أيضا بصيد الغزلان من الغابات [١].

ومهما يكن من شيء فإنه علي الرغم من الحروب التي خاضها الشعب ومن المظالم القاسية التي تعرض لها، فقد بقي له دائما تعطشه الذي لا تنفع له غلة إلي الحرية والعدل كامنا في قلبه، ومن أجل هذا الحب للحرية والعدل وعلي مر القرون استطاع هذا الشعب في بطئ وأناه، وبعد طول معانة وتعرض لنكسات كثيرة، أن يصوغ نفسه من خلال الصبر والمثابرة نظاما للحكم جعلهم أكثر الناس حرية علي ظهر البسيطة وفي الوقت نفسه صان هذه الحرية وحفظها[٢]، وحين عبر الغزاة البحر الغربي في رحلة محفوفة بالمخاوف وعمروا البرية القارية في أمريكا الشمالية جلبوا معهم فيما جلبوا إلي هذه الأرض البعيدة هذا التراث الغالي تراث الحرية، ومن ثم فإنه حين يتهدد الخطر هذه الحقوق وتلك الحريات سواء الخارج أو الداخل فإننا نحن الناطقين باللغة الإنجليزية سرعان ما نتذكر ميراثنا الغالي من الحرية الذي كسبناه بشق الأنفس، ونقف جانبا إلي جنب في أقدام وجسارة وفي أعتداد وقوة حتي يتحقق النصر وتمضي العاصفة ..ولقد تعرض هذا الميراث الغالي مرتين خلال هذا القرن بتضحيات بالغة تفوق الوصف، والحق أننا إذا أدركنا حق الإدراك كيف استخلصنا هذه الحريات وبأي تضحيات كسبناها، قدرناها حق وبذلنا لها الحماية والرعاية كي نصونها فهي ليست ملكا لنا وحدنا، ولا هي تراثاً قومياً لشعب بعينه، وإنما هي ملك للإنسانية[٣].

---

[١] -جوزيف داهموس : المرجع السابق ، صـ ٦٠.

- Bede's History , vol .1 , pp. 16-17.

[٢] -جيمس دوورتي : المرجع السابق، صـ١٩.

[٣] - جيمس دوورتي :المرجع السابق ، صـ١٩.

ثانيا:- بريطانيا الرومانية :

وقد كان الاحتلال الروماني للجزر البريطانية هو الحدث الذي أخرج بريطانيا إلي نور التاريخ إذ جعلها جزءا من العالم المتحضر، وظلت بريطانيا ما يقرب من أربعة قرون وهي تابعة للإمبراطورية، الرومانية تبعية إقليم من أقاليم الأطراف فلم تصبح في يوم من الأيام جزءا من صميم الإمبراطورية وأصطبغ السكان بصبغة لاتينية إلى الأبد علي أنه من الواضح أن مثل ذلك الاحتلال الطويل قد خلف بالجزيرة أثارا تدل عليه، كما ترك بها تراثا من مدينته ذلك السور الذي بناه الإمبراطور هادريان ١٢٣م عبر الجهات الشمالية من مضيق السلواي إلي مصب نهر التاين، ليكون حدا نهائيا بين بريطانيا الرومانية وبلاد اسكتلندا التي عجز الرومان عن إخضاعها لإمبراطوريتهم. والواقع أنه مما يشرح مدي ذلك الاحتلال وغرضه أن هذا السور -الذي يعتبر من أروع ما خلف الرومان من الآثار في أي بلد من البلاد التي امتدت إليها إمبراطوريتهم إطلاقا – هو أعظم ما خلفوه بالجزيرة ويليه مجموعة الحمامات التي يوجد واحد منها علي مسافة بضعة أقدام من مستوي شارع ستراند -Strand – بمدينة لندن، علي أن أكبر ما يربط بريطانيا الرومانية ببريطانيا الحالية، هو المسيحية التي اعتنقها الكليتون من أهل الجزيرة اعتناقا لا رجعة فيه [١].

وكانت الإمبراطورية الرومانية علي عهد أغسطس قيصر تشمل أسبانيا وبلاد الغال وإيطاليا والبلقان وأيبريا وإليريا، فامتدت من المحيط الأطلسي غربا حتي الفرات شرقا وفضلا عن شمال أفريقيا من الأطلسي حتي طرابلس وأسيا الصغري ومصر وبرقة وبلاد الشام وأعالي بلاد النهرين [٢]. أما النفوذ السياسي فقد امتد إلي أبعد من ذلك كثيرا، حيث شمل القبائل الجرمانية سواء التي تقع علي حدود الإمبراطورية الرومانية، أو التي كانت موجودة داخل أوربا شرقي الراين وشمالي الدانوب وامتد نفوذها في بلاد النوبة والسودان ووصل حتي جبال أطلس والصحراء الكبري [٣].

وترجع عظمة الإمبراطورية الرومانية إلي أن السلطة المركزية فيها استطاعت أن تحكم سيطرتها علي هذه المساحات الجغرافية المترامية الأطراف، وعلي تلك الشعوب التي اختلفت بعضها عن بعض في تراثها التاريخي وحضارتها ولغتها ودياناتها وليس هذا وحده هو مصدر عظمة الإمبراطورية الرومانية ومثار الإعجاب بها وإنما تبدو هذه العظمة واضحة جلية في مقدرة إمبراطورية الرومان علي استيعاب شعوب عريقة ذات حضارات قديمة كالمصريين واليونانيين، جنبا إلي جنب مع شعوب أخري حديثة المولد، ومازالت في فجر تاريخها مثل الغاليين

---

[١] - راوس :المرجع السابق ، صـ٧.

[2]- Chapot V., Lemona de Romaine , Paris , 1927 , pp. 68-71.

[3]- Thompson J.W., the Middle Ages , vol ,1, p.4.

والرومان، وهنا نلاحظ أن امتداد الإمبراطورية الرومانية علي شواطئ البحر المتوسط جعل من هذا البحر شرياناً رئيسياً يربط بين مختلف أجزائها في حين ساعدت الأنهار الداخلية علي الربط بين طرق الولايات، هذا فضلا عن الطرق المعدة التي اشتهرت بها حضارة الرومان والتي أقاموا منها شبكة واسعة مترامية ليس لها نظير في التاريخ [١].

أما عن غزو الرومان لبريطانيا يذكر –بيده- أنه لم يسبق للرومان أن هاجموا بريطانيا إذ لم تكن معروفة لديهم حتي عهد جايوس يوليوس قيصر – Gaius Julius Caesar- الذي كان قنصلا مع لوكيوس بيبولوس – Lucius Bibulus- ٦٠ ق.م، وعندما كان قيصر يستعد لشن الحرب ضد الجرمان وبلاد الغال، والذين كان يفصل بينهما نهر الراين، وصل قيصر إلي موريني – Morini- وجهز حوالي ثمانين سفينة حربية معدة لنقل الجند والمعدات، وكذلك قوارب كبيرة معدة لنقل الأحمال الخفيفة. وأبحر قاصدا بريطانيا يبدو أنه دخل في معركة شرسة في بداية الأمر ثم أعقبها عاصفة هوجاء ومن ثم فقد جزء كبير من أسطوله وعدداً كبيراً من جنوده ومن بينهم كل فرسانه تقريبا ثم عاد إلى بلاد الغال وأرسل فرقة الحربية إلي ثكنات شتوية وأعطي أمره ببناء ستمائة سفينة حربية من كلا الجانبين. ثم أبحر بتلك السفن إلي إنجلترا في أوائل الربيع، وإبان زحفه تجاه العدو تعرضت سفنه الراسية علي الشاطئ البريطاني لعاصفة هوجاء حطمت أسطوله، أما عن طريق اصطدامها ببعضها البعض، أو بقذف الأمواج لها علي الشاطئ البريطاني. وفقد قيصر في تلك العاصفة أربعين سفينة أما باقي السفن فقد تم إصلاحها بصعوبة بالغة [٢].

والحقيقة أن نهري الراين والدانوب يمثلان دفاعات طبيعية قوية، ويزودان عن حياض الإمبراطورية الرومانية وفيما وراء هذه الحدود النهرية الطويلة، كان رجال القبائل الجرمانية الأشداء ينتشرون في أعداد تجل عن الحصر واستقر رأي يوليوس قيصر علي القيام بعدة حملات حربية، لصرف القبائل الجرمانية عن خطوط الدفاع الرومانية في هذه الأصقاع، برهن قيصر خلال تلك الحملات الثماني العجيبة التي قام بها بين عامي ٥٨-٥١ ق.م علي مدي كفايته في الناحيتين العسكرية والسياسية، تصل تباعاً من البحر إلى أعدائه الغاليين بالقارة فتزداد مقاومتهم له وتضاعف من خسائر قواته[٣]، ولاحظ قيصر أن هذا المدد مصدره القبائل البلجية البريطانية، التي تعترف بشيء من سيادة ملك

---

[١] -سعيد عبد الفتاح عاشور: أوربا في العصور الوسطي، التاريخ السياسي، جـ١، مكتبة الأنجلو المصرية، ط٩، ١٩٨٣، صـ٢٦.

Rostovtzeff M., A History of the Ancient world , Oxford ,1927 vol .II , p.286 ; Chapot , op .cit , pp.103-105.

[2]- Bede's History ,vol. 2, p. 21-22.

[٣] - نظير حسان سعداوي : المرجع السابق ، صـ١١.

البلجيين في القارة عليهم، فلما علمت بغزو الرومان لإخوانهم أرسلوا إليهم حملة بحرية تؤازرهم برا وبحرا في مقاومتهم الغزو الروماني فضلا عن إيواء الجزيرة البريطانية للفارين من الرومان والتجار الغاليين وكهنتهم المعروفين بالدرويد، واتخاذهم الجزيرة مركزا لمقاومة حركة التوسع الروماني في القارة وسرعان ما تولد الدافع الأول لقيصر في غزو بريطانيا وأصبح من الضرورة الحربية لحماية إقليم غاليا أن يعبر المانش ويغزو بريطانيا ويقضي علي الصلات السياسية والعلاقات التجارية وروابط القرابة والنسب القائمة بين البريطانيين والغاليين بالقارة ولم يكن ظهور قيصر في ساحات بلاد الغال في دور المعتدي علي القبائل الكلتية، وإنما في دور المدافع عنها الذي قام أولا بصد هجرة شعبية كبيرة تحركت من القسم الغربي من أرض سويسرا الحالية إلي الأطراف الغربية للقارة[١].

ولقد كان هناك العديد من الأسباب التي جعلت من فتح إنجلترا أمراً ضرورياً، ولقد بدأ فتح بريطانيا في نظر يوليوس قيصر نفسه – وفي نظر العالم الروماني أيضا – نتيجة منطقية لفتحه بلاد غاليا، لأن أهل جنوب بريطانيا وشمال غاليا قد ربطهما بعضا إلى بعض روابط القرابة والنسب، فضلا عما نشا بينهما من صلات سياسية وعلاقات تجارية، وقد أرسل البلجيون ببريطانيا إلي إخوانهم الغاليين معونة حربية أثناء كفاحهم ضد قيصر. ثم أن حركة الملاحة البحرية التي حملت معدن الصفيح من جهات كورنوول – بأقصي غرب المانش – إلي القارة الأوربية كانت في أيدي الفنتيين -Veneti – وهم أولئك الملاحون الذين استوطنوا ما يعرف باسم بريتاني بفرنسا الحالية، والحاصل أن الأسباب التي جعلت إخضاع الجزيرة البريطانية أمراً ضروريا للدولة الرومانية اجتمعت كلها لدي قيصر[٢].

وكان من أسباب عزم يوليوس قيصر علي غزو بريطانيا، أن هذه الجزيرة أصبحت مأوي للفاريين من حكم الرومان، وأصبحت كذلك مركزا لمقاومة حركة التوسع الروماني في القارة الأوربية[٣]. وكذلك ما اشتهر عن الجزيرة يومئذ من خصوبة الأرض ووفرة الحاصلات وجودتها فضلا عن الشهرة الذائعة منذ أمد بعيد عن مستودع العبيد ومناجم الصفيح بالجزيرة البريطانية المجهولة، والتي قلما يبلغها التجار حتي ولا تجار مرسيليا المغامرين، وتبين لقيصر إلا أنه من اليسير علي الفرق الرومانية أن تبلغها وتستحوذ علي هذين الموردين الهامين في ميادين التجارة والصناعة. وطمع قيصر أخيرا في السيطرة علي

---

[١] - فشر : تاريخ أوربا القديم، صـ١١٢؛ نظير حسان سعداوي: المرجع السابق، صـ١١.

[٢] -رواس : المرجع السابق، صـ٨.

[3]- Wood ward , op . cit ,pp 2-3 ; Thompson , op .cit., pp. 3-6 ; Cary , A History of Rome down to the Reign of Constantine , London ,1954 , pp. 646-647.

حركة الملاحة التجارية في أقصي غرب المانش والنوافذ التجارية علي شاطئيه القاري والبريطاني [١].

وهكذا تجمعت لدي قيصر الأسباب الحربية والسياسية والاقتصادية للقيام بأخطر مغامرة حربية يقوم بها قائد روماني في التاريخ القديم، لأنها مغامرة إلي أرض مجهولة. لم تطأها قبله جيوش غازية ولم يكتب عنها أي زائر، ولم يسترشد في غزوها بمعلومات قط، وهي الصفات الحربية لهذا الشعب الذي سيغزو دياره وما هي مقوماته الدفاعية؟ وما هي الطرق التي سيسلكها ؟ هل هي في السهول أو المرتفعات؟ هل هي في الغابات أو في الحراش "؟ هل هناك أنهار تعترض سبيله؟ الإجابة علي كل هذه الأسئلة من باب التخمين ووازن بين أسباب الغزو والظروف الغامضة المحيطة بها، وبين إمكانياته في الرجال والمعدات وبعد المسافة بين قاعدة إمبراطوريته في روما وبين ميادين القتال، وما سوف تعرض له خطوط تموينه من أخطار لا حصر لها، أهمها بلا ريب الشعوب الغالية والجرمانية المعاونة للإمبراطورية الرومانية [٢].

وعرف قيصر أن القبائل الكلتية النازلة في بلاد الغال كانت رديئة التسليح سيئة التنظيم، وتقطع أوصالها الأحقاد والمنافسات وعرف كيف يستفيد من كل مواطن ضعف خصومه. وكان مرنا في سياسته يلجأ إلي اللين تارة والتهديد تارة أخري، فإذا لم يفلح التفاهم عمد إلي القوة عادته في المراحل الأولي من حروبه ضد الغال قبائل الأيدي –Aedui النازلين في فرنسا بين اللوار والساءون والريمي –Remi- النازلين في بلجيكا [٣].

وعبر قيصر القنال الإنجليزي ليلقي الرعب في قلوب البريطانيين الأولي: في مساء ٢٦ أغسطس سنة ٥٥ ق.م بعد أن بني قوارب أسطوله علي نسق السفن الرومانية المعروفة في المجري الأسفل لنهر الراين وعلي سواحل فرنسا الغربية، ليعرف بحاره الكلت أن روما كانت سيدة البحار أبحر قيصر في ثمانية ألاف محارب روماني من ميناء يحتمل أنه قريب من كالية الحالية ونزل علي جزيرة ديل –Deal- الحالية حيث ضرب خيامه، ولما كانت سفن أسطوله مصنوعة من أخشاب غير متينة لم تقوي علي مقاومة الزوابع فغرقت عن أخرها وعجز فرسانه عن النزول إلي البر، وعلم البريطانيون بالكارثة التي حلت به فأسرعوا إلي جمع أشتاتهم للدفاع عن بلادهم ووقفوا علي الشاطئ عراه الأجسام

---

[١] -نظير حسان سعداوي : المرجع السابق ، صـ١٢.

- Stanton , op . cit , p.1 ; Tacitus ,op . cit., p. 20; Richmond ,op . cit., p 10 ; Chadwick , op . cit , p. 64.

[٢] - نظير حسان سعداوي : المرجع السابق، صـ١٢.

[٣] - نظير حسان سعداوي : المرجع السابق، صـ١٢.

- Davis , the British Isles from Earliest Times to the Meddle Ages , London , 1926 ,vol VII , p.3497.

وبأيديهم الحراب والبلطات، وحدثت مناوشات بينهم وبين قيصر جعلتهم يفرون أمامه إلي الداخل، وقيل انه اضطر أمام هجماتهم إلي أن يعقد معهم هدنة ثم تركهم عائدا إلي بلاد الغال [١].

وأكمل قيصر استعداداته بقوة خلال وجوده في بلاد الغال، وضاعف عدد جنوده المحاربين وزود الجيش بالسفن الضخمة والقوارب والفرسان، وعاد إلي بريطانيا في ربيع ٥٤ ق.م ودخل في مواجهة مع البريطانيون واستطاع البريطانيون أن يبلوا بلاءا حسنا ولكنهم هزموا فرسان يوليوس قيصر [٢]، وقتلوا أبرز فرسان القيصر وهو التربيون لابينوس –Labienus- وفي الجولة الثانية : من الحرب بين قيصر وبريطانيا ورغم صعوبة ما تعرض له جنود قيصر من الأخطار المهلكة، فإنه استطاع أن يوقع البريطانيون وأجبرهم علي الفرار، ولم يبدي البريطانيون أي نوع من المقاومة، وتراجعوا إلي الداخل واتجه قيصر صوب نهر التايمز حيث ركز البريطانيون خطوط دفاعاتهم شمال النهر، مجتمعين في حشود ضخمة علي الضيعة الأخرى من النهر تحت قيادة ملكهم كاسو/ بيليونوس – Casso bellanns– أو كاسيفيلاونوس –Cassivellaunns- [٣]، غير أن قصير لجأ إلي أسلوبه القديم في محاربة عدوه عرف انقسام البريطانيين إلى أربعين قبيلة أشهرها قبيلة كنت الساكنة في مدينة كنت وان العشائر الأخرى تحسد مدينة كنت علي سؤادها وصدارتها لهم، فجذب إليه الزعماء المنافسين لملك كنت الذي لم يتحمل الضربات التي وجهها إليه قيصر فأتي إليه مستسلما راضيا بالخضوع والولاء والجزية، ثم عاد قيصر عابراً القنال الإنجليزي ليؤكد لروما أن القبائل التي تسكن تلك البلاد عاجزة عن المقاومة المتحدة وان غلاتها تكفي جيشا غازيا يأتيها في الوقت المناسب [٤].

وفي تلك المرة قام قيصر بوضع ساتر للإعاقة من الأوتاد الحادة، غطت ضفتي النهر تقريبا، وكذلك المخاضة من أسفلهما ويمكن حتي يومنا مشاهدة بقايا وأثار تلك الأوتاد، حيث كانت في سمك فخذ رجل ومغطاة بالرصاص ومثبته بطريقة تجعل من غير الممكن اقتلاعه من قاع النهر. وشاهد الجرمان والبريطانيون هذه الأوتاد وتجنبوها وأن كانوا غير قادرين علي مقاومة هجمات الفرق الرومانية واختفوا في الغابات واعتادوا الخروج منها لشن هجمات خاطفة

---

[١] - نظير حسان سعداوي : المرجع السابق، صـ١٣.

- E.H.D , op . cit., pp.1-2 ; Monmouth , op . cit , pp.107-108.

[2]- Bede's History ,Vol .2 , pp.22-23 ; Richmond ,op . cit., pp.9-10.

[3]- Bede's History , vol .2 , pp. 22-23 ; Monmouth ,op . cit., p.107; Richmond ,op . cit , p.9 ; laud , op. cit ., p.5 ; parker , op . cit., p.4.

[٤] -نظير حسان سعداوي :المرجع السابق، صـ١٣-١٤ .

E.H.D , English Historical Documents , by Whitlock , London , 1979 , pp. 149-150.

علي الرومان، وكلفتهم خسائر فادحة في العدد والعتاد [١]. وفي ذلك الوقت تم استسلام مدينة ترينوفانت –Trinovantes- ومعها قائدها أندروجيوس- Androgeus- إلي يوليوس قيصر وسلمته أربعين رهينة، وتبعها العديد من المدن البريطانية، وتوصلت هذه المدن إلي اتفاق مع الرومان استطاع من خلاله الاستيلاء علي مدينة كاسيفيلاونوس بعد قتال شرس ومرير بسبب مقاومة الأهالي، حيث كانت المدينة حصينة بين مستنقعين، فضلا عن أنها كانت محاطة بالأراضي التي تكسوها الغابات [٢].

وعاد يوليوس قيصر إلي روما بعد أن أحرز بعض الانتصارات الهامة، التي مكنت له ولرجاله أن يجوبوا سهول كنت وميدل أسكس –Middle Essex- وبعد أن دون القيصر ملاحظاته عن بريطانيا وعن حياة سكانها ومعتقداتهم الدينية ونظم الحكم فيها، وما بينهم وبين الغاليين من أوجه الشبه والخلاف وخص مقاطعة كنت بنصيب كبير من مذكراته الواردة ضمن كتاب – De bello Gallico- وركز اهتمامه أيضا في القوة التي نظمها رجال الدين المعروفين بالدرويد، وشبكة الجاسوسية التي هددت سلطان روما في غرب القارة وقارن بين قوتهم في الغال وفي الجزيرة البريطانية، وأنهم أشد وأنكي خطرا في الأخيرة لسيطرتهم علي التعليم في المدارس والقضاء في المحاكم، ولهذا كان قيصر أول من أرخ للجزيرة البريطانية وكتب عنها [٣].

ويحدد الفتح الروماني للجزر البريطانية علي يد يوليوس قيصر بداية مرحلة هامة في تاريخ هذه البلاد إذ كانت الجزيرة في عزلة شبه تامة إلي أن جاء

---

[1]- Bede's History ,Vol , 2 , p.23 ; Tacitus the Agricola & the Germania , p.19.

[٢] - الغابات والأحراش في الجزر البريطانية كانت من أهم أسباب فشل القيصر في الاستيلاء السريع علي هذه البلاد، ومما صعب مهمته كذلك عدم وجود مدن أو معاقل أو حصون لهم يمكنه من أن يحاصرها ويستولي عليها، وكذلك عدم وجود طرق ومسالك يمكن أن تسير فيها القوات الرومانية. ونظرا لذلك فإن هذه الحرب استنفذت جانبا كبيرا من جهد الرجل ووقته وابتلعت قدرا كبيرا من دخل الخزانة الرومانية. حيث أكدت المصادر قيام قيصر في المحاولتين باصطحاب خمس وخمسين سفينة في المرة واستطاع ودحرالبريطانيون. وفي الثانية هاجمها بأسطول ضخم مكون من ستمائة سفينة حربية، وانهزم في بادئ الأمر، ولكنه انتصر بفضل خيانة اندروجيوس، وعقد الصلح مع كاسيفيلاونوس ليعود بسرعة لروما لمواجهة عدوه بومبي –pompey- اخطر أعدائه بعد أن أقرت بريطانيا بجزية قدرها ثلاثة ألف جنية فضي. انظر :

- E.H.D ,op . cit., pp. 149-150 ; Richmond ,op . cit., p. 9 ; Trevelyan , Hist. of England , vol.2 , pp.10-13 ; parker ,op ,cit .op.4 ; laud ,op . cit., p.5.

[3]- Trevelyan , op. cit., p.13 ; Carter and Mears , A Hist. of Britain to 1485 , Oxford , 1946, pp.7-8.

الفتح الروماني وربطها بجعله الأحداث في القارة الأوربية[1]. وعاشت الجزر البريطانية حتي نهاية العصور الوسطي، وبداية العصور الحديثة في ظل المؤثرات القارية والموجات الحضارية في أعقاب استكمال الأمة الإنجليزية لمقوماتها [2].

ورغم امتداد سلطان روما إلي بعض أجزاء من الجزيرة البريطانية، فإن الفتح الحقيقي لها قد تأخر لأسباب سياسية بدءا بعام مصرع يوليوس قيصر (١٥ مارس ٤٢ ق.م) ففي عهد الإمبراطور تيبريس لم يجد أن هناك ضرورة حربية لفتح بريطانيا، بل القيام بأي حرب أخري في هذه الجزيرة غير أن الأحوال في بريطانيا بعد عام ٣٧ م قد تغيرت؛ نتيجة ظهور حركة معادية من داخل الجزيرة لروما، ظهرت بدايتها في شمال غاليا وشغلت بال الإمبراطور الروماني كاليجولا (٤١-٣٧م) لذلك قرر غزو الجزيرة مرة أخري[3].

وتفصيل ذلك التغير أن زعامة البلجيين والبريطانيين بالجزيرة في شخصي ملكي سمبلين – Cymbeline- الذي خلده الكاتب الشاعر وليم شكسبير في إحدى مسرحياته والذي أوضحت عاصمة مملكة كلوشستر –Colchester- مذار الرسميين من الرومان وكبار التجار من الغاليين. وجدت تلك الزعامة سكان الجزيرة مما دعا الإمبراطور كلوديوس إلى العودة لمشروع فتح بريطانيا سنة ٤٣م حين أعد جيشا من أربعين ألف وقيل خمسين ألف مقاتل كان نظامهم وتسليحهم ومهاراتهم فوق طاقة السكان الأصليين، قادهم القائد الروماني الشهير أولوس بلانيوس، وحضر الإمبراطور بنفسه للإشراف علي عمليات الفتح. فعبر نهر التايمز واحتل كولشستر بعد معارك عنيفة دارت بينه وبين الملك سمبلين ذهب الأخير ضحيتها وخلد البريطانيون ذكراه في تاريخهم إلي اليوم وانتشرت القوات الرومانية من مدينة لندن إلي سائر الجهات السهلية من الجزيرة في اكثر من اتجاه وعاد الإمبراطور كلوديوس قبل إخضاع الثورات والحركات الوطنية التي نظمها كراكتاكوس –Caractacus- بين سمبلين بعد أن هرب من عاصمة أبيه قبل سقوطها في يد الروما ظل الأمير البريطاني يقاوم بعنف قوات الاحتلال الرومانية إلي أن وقع أسيرا في يد قائدها فأرسله مكبلا بالحديد مع عائلته إلي روما وهناك استعرض في شوارعها مع أسري الحرب عفا عنه الإمبراطور أخيرا لشجاعته وأبقاه منفيا في روما [4].

ولا شك أن السبب الرئيسي لغزو الإمبراطور كلوديوس الجزيرة البريطانية، يرجعه الكثير من المؤرخين إلي الحصول علي ثرواتها المعدنية

1- Davis , the British Isles ,op.cit., p. 3498.

2- wood ward ,op . cit., p.3.

3 -Com. Med. Hist, Roman Britain , by Haver field , vol .1 , p.368 ; Parker ,op . cit., p.6 ; Monmouth ,op .cit., p.119.

4- parker ,op.cit., p .6 ; Monmouth ,op. cit , p.119 ; Wood ward , op. cit., pp. 2-3 ; laud, op. cit., p.7 ; E.H.D ,op. cit., pp.150-151.

المتعددة وكذلك كان هناك مبرر قوي عند الرومان لغزو هذه البلاد وهو العامل الاقتصادي، وفي المقابل كان الاقتصاد الروماني في حالة من الخمول والركود[١]. وفي المقابل قلل ستنتون – من أهمية العامل الاقتصادي ولكن معظم المؤرخين وعلي رأسهم تاكيتوس – يذهبون أن العامل الأساسي في غزو كلوديوس لبريطانيا هو الحصول علي ثرواتها المعدنية بصفة خاصة حيث أن روما كانت تعاني من أزمة اقتصادية طاحنة بسبب القلاقل والاضطرابات والتنازع علي العرش بين القادة العسكريين وتدهور حركة التجارة واحتياجاتها للثروات المعدنية وكذلك الخشبية التي كانت روما في أمس الحاجة لها لإعداد أساطيلها الحربية والتجارية للدفاع عن سلطاتها المتداعية في القارة الأوربية [٢].

وهكذا سيطر الرومان في بضع سنين علي جميع الأجزاء السهلية الخصبة من الجزر البريطانية وبعد مضي خمس وثلاثون عاما بها احتلوا بلاد الغال احتلالا عسكريا تماما وظل الرومان يعانون مرارة الثورات القومية في الجزيرة من أخطارها ثورة ٦١م، التي قادتها ملكة لإحدى القبائل البريطانية تدعي بوديكا – Boudicca- أو بوديسيا – Boadicea- بدعوى أن ضباطا رومانيين قد اعتدوا علي عفاف ابنتها ونهبوا مملكتها وباعوا كثيرا من رجالها الأحرار في سوق الرقيق وبينما كان الحاكم الروماني بولينس مشغولا في الاستيلاء علي جزيرة مان – Man- في البحر الايرلندي هزم جيش بوديكا الفيلق الوحيد الذي وقف في وجه وزحف علي لندنيوم – Londinium- وكانت في ذلك الوقت علي حد قول –تاكيتوس – أهم مسكن للتجار كما كانت سوقا كبري للتجارة وقتل كل روماني في هذه المدينة أو في فويرلا منيوم – Verulaminum- وكذلك مدينة سانت اولبانز –St. Albans- وذبح حوالي سبعون ألف روماني هم وحلفاؤهم قبل أن يلتقي بولينس وفيالقة بالثوار، وحاربت بوديكا وابنتها في عربة حربية بشجاعة نادرة في أثناء هزيمتها ثم تجرعت السم وضربت بحد السيف حوالي ثمانين ألف من البريطانيين[٣].

ولم يمضي علي الرومان في الجزيرة سوي خمس وثلاثون عاما تقريبا حتي احتلوا بلاد الغال احتلالا عسكريا تماما، وهو عمل بارع لم يقدر السكسون من بعدهم علي تحقيقه ولم يستطيع النورمان أن ينهضوا به في عهدهم على بعد قرون، أم سر هذا النجاح السريع فهو العناية بمد الطرق وتمهيدها وبناء القلاع

1- Tacitus , op . cit ,p. 20 ; Chadwick ,op. cit., p. 64 ; Stanton ,op. cit. , p.1.

2- Stanton , op.cit ., pp.1-2 ; Tacitus , op.cit. , pp.20-21 ; Richmond , op. cit ,p.10.

٣ - نظير حسان سعداوي :المرجع السابق، صـ١٥-١٦، ول ديورانت قصة الحضارة، جـ٣، م ٣، صـ٥٥.

- Bede's History, vol .2, p.23.

علي طول تلك الطرق، مع شحن القلاع بالحاميات من الجند ولما كانت مدينة لندن ملتقي تلك الطرق جميعا فإنها باتت قاعدة لتموين الجيوش، ومن ثم صارت المركز الأعظم للتجارة بالجزيرة كلها ومما خلفه الاحتلال الروماني أيضا أن لندن غدت منذئذ المركز التجاري الأعظم دون منازع حتي الآن وهذا برغم ما أصابها من اضمحلال خلال غزوات السكسون، وأن الطرق التي مدها الرومان، واخترقوا بها مصاعد التلال ومهابط الوديان لا تزال بقاياها هنا وهناك جزءا من معالم الجزيرة [١].

وفي عهد ولاية إجريكولا العظيم (٧٨-٨٤م) تم لأول مرة إخضاع الأقاليم الشمالية من ويلز وجزيرة إنجلز وما جاورها. ثم زحف إلي شمال إنجلترا فوصل إلي مدينة يورك -أسست حوالي ٧٥ م- وبني حولها القلاع. وشق طريقا بين سلاسل البنينيس وزحف منه شمالا ٨٠م لفتح اسكتلندا فأخضع الأراضي الجبلية المنخفضة منها حتي الخط الواصل بين نهر كليد – Clyde- ومضيق فورث – Forth – ومن هناك قاد حملة برية بحرية إلي بلاد الاسكتلندين (الكاليودنيين) أبادتها قوة الآخرين ٨٣م فتقهقر جنوبا، وأقام سدا منيعا من القلاع الحصينة بين كليد وفورث ٨٤م وما كان يعيد تنظيم قواته لإخضاع اسكتلندا, حيت استدعي إلي روما ٨٥م دون تحقيق هذا المشروع ومشروع فتح إيرلندا وإن كان له فضل السبق بين الأباطرة الرومان في أرومة البريطانيين –To Romanise- ويروي عنه تاكيتوس – كيف نشر الحضارة الرومانية بين " شعب فظ مشتت ذو نزعه حربية " بإنشاء المدارس وإذاعة استعمال اللغة اللاتينية، وتشجيع المدن والأغنياء علي تشييد المعابد والملاعب والساحات والحمامات العامة [٢].

---

[١] - رواس : المرجع السابق، صـ٩.

- Fisher , H.A.L. , A History of Europe , London ,1937 ,vol .1, pp.118-120.

[٢] - كورنيليوس تاكيتوس –Carnelians Tacitus- ولد حوالي ٥٤ أو ٥٥م، وتوفي ١٢٠م وتلقي تعليما رومانيا تزوج من ابنة أجريكولا القائد الروماني العظيم وتدرج في سلك وظائف أعضاء مجلس السناتو حتي وصل إلي منصب قنصل ٩٨م، ثم البرو قنصل، الذي مكنه من التعين حاكما لولاية أسيا الصغري ١١٢م. وكتاباته عن الجرمان تعد أعظم الكتابات التي عرفها العالم الروماني، لأنه قدم صورة رائعة عن حياة الشعوب الجرمانية وعادتها وتقاليدها في كتابه المسمي جرمانيا –Germania- وأسمه كاملا "بحث في أوصول الشعوب الجرمانية ووطنها وطرق معيشتها،وألف كتابه في عهد الإمبراطور تراجان (٩٨-١١٧م) وما ينبغي معرفته أن هذا المؤرخ لم يزور الأراضي الجرمانية . فقد استطاع التحدث مع القوات العائدة من جبهات القتال، وكذلك الاضطلاع علي الوثائق لحكومتة وهدفه من كتابه هذا الكتاب هو عقد مقارنة بين المجتمع الجرماني لعاداته القيمة التي تشبه روما القديمة، والتدهور والانحطاط الذي وصل إليه المجتمع الروماني. أنظر في ذلك :

وتعرض سلطان وعظمة روما بعد إجريكولا لخطر شديد في الثلاثين سنة التي أعقبته (٨٥-١٢٠م) لذا انحصرت سياسة الأباطرة بعد اجريكولا في تثبيت الحدود وتأمينها بين بريطانيا وبلاد اسكتلندا التي عجز الرومان عن إخضاعها لإمبراطوريتهم. وكان الإمبراطور هادريان هو واضع أسس هذه السياسة الدفاعية بعد أن زار إنجلترا ١٢١م عقب الثورة القومية الخطيرة التي تعرض لها سلطان روما في شمال إنجلترا، والتي ذهب بسببها الفيلق التاسع الروماني اختط هادريان (١٢٢- ١٢٤م) فوق مرتفعات نورثميريا سورلا تزال بقاياه تحمل اسمه إلي اليوم، يمتد من البحر إلي البحر في الجزيرة عبر الجهات الشمالية من مضيق السلوي –Salway- عند مدينة كارليل الحالية غربا، إلي مصب نهر تاين – Tyne- عند مدينة نيوكاسل شرقا، ليكن حدا نهائيا بين بريطانيا الرومانية واسكتلندا، يبلغ طوله سبعين ميلا وقيل ثلاثة وسبعين ويمر بسبع عشر قلعه حربية تسكنها الحاميات الرومانية، وعلي مسافة كل ميل قلعة صغيرة للاستراحة والمراقبة. غير أن السور الهادرياني لم يمنع القبائل المتاخمة له من أحداث القلاقل وتهديد الحدود وإزعاج الحاميات الرومانية فقد كانت شعوب البكت - Picts – والسكوت –Scots- في بريطانيا تعبر السور، والذي يفصل بين بريطانيا الرومانية واسكتلندا التي فشلوا في احتلالها [1].

علي أن السور الهادرياني لم يمنع القبائل المتاخمة له والقبائل الشمالية من تهديد الحدود، لذلك قرر سلفه الإمبراطور انطونيوس بيوس –A.Pius- ١٤٠م إلي تعديل الحدود البريطانية الرومانية في الشمال فأخضع الأسكتلنديين وتقدم داخل بلادهم لأسباب مجهولة حتي اليوم، حتي وصل إلي المنطقة الواقعة بين مضيق نورث ونهر كليد – وهي المنطقة التي رسمها اجريكولا قبلا – وبني حائطا من الحجر والطين به سلسلة من القلاع يتراوح عددها بين أثني عشر، وثمانية عشر، وعشرين قلعة. وكان هدفه من هذا السور البالغ ثلاثة وثلاثين ميلا

- نظير حسان سعداوي :المرجع السابق، صـ١٦، فشر : تاريخ أوربا القديم، المرجع السابق صـ١٧٨؛ ديورانت : قصة الحضارة، جـ٣، م٣، صـ١٥، ١٦؛ إبراهيم طرخان، تاكيتوس والشعوب الجرمانية، القاهرة، ١٩٥٩، صـ١١-١٥.

- Church .A.L. & Brodribbe J., The Complete works of Tacitus , New York , 1942 , pp.9-10 ; Cantor Norman , F. Medieval Hist. the life and Death of Civilization ,U.S.A, 1969, p.105.

[1]- Painter S., A History of the Middle Ages ,284-1500, London, 1964 , pp.3-4 ; Hay Denis ,the Medieval Centuries , London ,1974 , p.3 ; Rainer ,op. cit., pp.5-6.

هو الدفاع عن الأقاليم الواقعة شمال سور هادريان. ولكن ما لبث القبائل أن اقتحمت الحائط واقتحمت سور هادريان أيضا [١].

وسرعان ما باءت محاولات بيوس الدفاعية هذه بالفشل، إذا لم ينقض عشرون عاما بعد قيام هذا السور حتي قامت القبائل الاسكتلندية بثورة وأخترقت ذلك الحائط وتجاوزته جنوبا، حتي حررت كل شمال بريطانيا من دربي سير إلي تشفيوت –Cheviot – (١٥٨-١٦٠م) وقامت ثورة ثانية ١٨٣م تحت حائط بيوس نهائيا، ووصلت سورها هادريان وتسلقت بعض نقط منه الأمر الذي أوغر صدر الإمبراطور سبتموس سفروس –S. Severus – (١٩٣- ٢١١م) الأفريقي الأصل – وهو أول الأباطرة العسكريين الذين أظهروا كفاءة ومقدرة كبيرة علي الرغم من نزعته الاستبدادية حتي أن عهده يعتبر مرحلة تحول في تاريخ الإمبراطورية الرومانية، واستطاع هذا الإمبراطور أن يؤسس أسرة قصيرة العمر ظلت في الحكم حتي عام ٢٣٥م[٢].

وعقد الإمبراطور سفيروس العزم علي إبادة الجنس الكاليدوني بنفسه، فحضر إلي بريطانيا في الفترة من ٢٠٥ حتي ٢١١م، وأصلح سور هادريان وجدد بنياته وحصنه لمدة ثلاث سنوات (٢٠٥-٢٠٨م) وأضاف إليه عدد من الحصون القوية الجانبية، ثم توغل شمالا في الأراضي الاسكتلندية حتي مدينة إبردين غير أن المرض داهمه في حملته علي اسكتلندا فأجبره علي العودة إلي مدينة يورك في الشمال الشرقي بإنجلترا الحالية حيث توفي بها ٢١٢م. وتعتبر حملاته في اسكتلندا في الشمال أخر المحاولات التي قامت بها الإمبراطورية الرومانية لأخماد الفتن والثورات [٣]. وأصبح سفيروس جديرا بأن يعرفه البريطانيين، بعد أن أصلح لهم سور هادريان وأقام شبكة من الطرق وأمتدت من أطراف اسكتلندا حتي الصحاري العربية وكذلك شبكة الأنهار وتأمين الطرق، ونشطت حركة التجارة وتبادل السلع بين الأقاليم، كل ذلك هيأ لبريطانيا أن تتمتع بقرن من السلام، وازداد التجانس بين سكان الإمبراطورية وأصبحوا يشتركون في مستوي عام للحياة، وقنعت روما بهذا القدر من التوسع في الجزيرة البريطانية، وأنصرف إلي تركيز حكمها وسلطانها في إنجلترا وأصبحت اللغة اللاتينية قد سادت الغرب [٤].

1- Haver field, Roman Britain , Com. Med. Hist., vol .1,p 369 ; Reynar , op. cit , p.6.

2- Stephenson, Med Hist. , New York , 1943, p. 33 ; Charles worth .M.P., Roman Empire , Great Britain , 1961 ,pp. 132-133 .

3- Haver field , Roman Britain , Com. Med. Hist. ,vol .1, p.369 ; Reynar , op. cit , pp. 6-7.

4- Carter, op. cit., pp.13-15 ; Kent J. P., & Painter k.S., Wealth of Roman world ,Gold and Silver A.D. 300-700, British Museum , 1977, p.15.

وبعد مجهودات سفيروس الحربية وحملاته المتعددة قنعت الإمبراطورية الرومانية بحكم أجزاء واسعة من الجزر البريطانية، وركزت قوتها في حكم ما تحت يدها، وتركزت بريطانيا الرومانية علي ما هو الآن من إنجلترا وويلز. وساد السلام والرخاء هذه الجهات أكثر من قرنا كاملا [١].

وبينما ذلك يجري كانت الإدارة الرومانية قد تطورت، واستقرت أشكالها بإرجاء بريطانيا الرومانية، إذ قسمها الإمبراطور سفيروس إلي قسمين أدارين، وراعي أن يكون ذلك متمشيا مع التقسيم الجغرافي للبلاد، فجعل بريطانيا السفلي ذات صبغة مدنية وقاعدتها مدينة لندن، حيث أقامت هيئة الحكومة، ولما كانت الحياة والنظم الرومانية قد استمدت نموها التدريجي من أسس أصولها في المدن الواقعة بحوض البحر الأبيض المتوسط، فقد سار العمران ببريطانيا منذ البداية علي نحو ما حمله إليها الرومان من ألوان تلك الحياة، ويبدو ذلك جليا فيما أخذوا في تشيده من المدن بأنحاء البلاد، ولما كان بالنظم الرومانية متسع للحكم الذاتي داخل النطاق الإمبراطوري العام، فقد بلغت خمس من المدن البريطانية الكبري مرتبة "المستعمرات المستقلة " وتمتعت بما لأصحاب تلك المرتبة من امتيازات وهذه المدن هي فريولاميوم –Verulamium- أي سانت إولبنز – St.Albans- الحالية وكولتشستر ولينكولن وجلوسستر – Gloucester– ويورك ويضاف إلي ذلك مجموعة العواصم القبلية مثل كانتربري – Canterbury- وونشستر ودرتشستر واكستر ولسستر – Leicester– ولقد أندثر من تلك المدن عدد غير قليل مثل كيستور-Caistor- وسلتشتر علي أن معظم هذه المدن ظل باقيا ليدل علي ناحية أخري من التراث الروماني ببريطانيا الحديثة، وهو تحديد الكثير من مواضع المدن الحالية. ذلك أنه علي الرغم مما أصاب تلك المدن من انحلال وخراب أثناء الاضطراب، الذي صحب الغزو السكسوني للبلاد، فإنه ليس من المقبول عقلاً أن حلقة الاتصال بين بريطانيا الرومانية وإنجلترا التي تلتها قد انقطعت تماما إذ ليس يبدو أن تلك المدن قد محتها النيران، بل تدل الدلائل الواضحة علي أنها انكمشت وتولاها الخراب والإهمال فكسدت تجارتها واستحال سكانها إلي مجموعات من الأسر البريطانية القابعة في الأكواخ وسط ركام الإمبراطورية الرومانية التي كانت [٢].

ومهما يكن من أمر فإن الفضل يرجع إلي الإمبراطور سبتموس سفيروس في تأجيل الكارثة التي حلت بالإمبراطورية، وغدا الكثير من الأباطرة لا حول لهم ولا قوة وكثيرا ما ظهر من بين صفوف الجيش من نادي بنفسه

---

[1]- Katz .S. , The Decline of Rome and the Rise of Mediaeval Europe , New York, 1955, pp.7-9 , John Richard Green ,op .cit., pp5-6.

[٢] - رواس : المرجع السابق، صـ١١-١٣ .

- Robinson .C.f., A Hist of Europe Ancient & Medieval (U.S.A) 1920 ,pp. 402-403.

إمبراطورا كما أن الفرق الإمبراطورية تحكمت في اختيار قادتها وفق مشيئتها لا وفق رغبة الإمبراطور والسناتو، فاندلعت الحروب الأهلية وحرص كل إمبراطور علي أن يكسب ولاء الجند وإخلاصها، ومما يبين لنا نفوذ الجيش وسطوته آنذاك النصيحة التي أسدها الإمبراطور سفيروس إلي أبنائه وهو علي فراش الموت إذ قال " أجزلوا العطاء للجند، ولا تهتموا بالآخرين " ولكن هذه النصيحة ضاعت أدراج الرياح، فقد أخذ الجيش يفقد الميل إلي الحرب، ولم يهتم رجاله إلا بمصالحهم الخاصة، وبناءا علي ذلك لم يستطيع الإمبراطور القضاء علي منافسيه[١].

علي أن الخراب قد بدأ يدب في تلك المدن البريطانية منذ القرن الثالث الميلادي وذلك حين أخذت الحياة أنحاء المدن بأوربا ولم تنعم بريطانيا الرومانية بشيء من الرخاء الاقتصادي، لأنها لم تكن وقتذاك إقليما غنيا بل انحصرت أهم صادراتها في الصفيح والرصاص وقليل من اللؤلؤ والجلود والعبيد والحبوب، ثم أن السلع الرومانية مثل الأواني الساموسية نسبة إلي جزيرة ساموس ببحر اليونان، زاحمت منتجات الفن الكلتي وطارته حتي قتلت صناعته وما بها من نمازج موسومة بطابع الخيال الذي يشبه الأحلام، غير أن تدهور الحياة بالمدن جعل المحور الاقتصادي ينتقل إلي الريف –Villas- التي شيدها الرومان بالجهات الزراعية المستخدمة من الغابات والمرتفعات الخضراء مثل تشدورث التي أخذت تظهر بين تلال كوتسولدز. ذلك أن بريطانيا الرومانية لم تكن إقليما مزدحما بأهله، ولم تشبه معالمها وتقترب مما هي عليه الآن، بل خلا معظمها من السكان واكتسي أكثر جهاتها بغابات وبرك ومستنقعات تتحللها ضواحي الريف وما حولها من المزارع الجديدة. ولابد أنها شابهت أراضي الأطراف بشمال أمريكا في أيامها الأولي، وفي قصة التاريخ الأمريكي. وهي قصة قوم اتجهت وجوههم ومراميهم نحو الغرب دائما، ما يشبه بعض الشيء ما عمله أجداد أولئك الأمريكيين وآباءهم الأقدمون في الجزيرة البريطانية وذلك قبل كشف القارة الأمريكية بألف أو أكثر من السنين [٢].

والواقع أن تحول السكان ببريطانيا القديمة منة أقاليمهم الأولي إلي ما يليها غربا من الأقاليم، هو أعظم ما طرأ علي الجزيرة البريطانية من أحداث منذ نزل شواطئها الإنسان، لأن مثل هذه الحركة هي الدليل علي التطور الاقتصادي الذي تتغلب الجماعة البشرية في أثنائه علي البيئة المحيطة بها. وقد بدأت تلك الحركة ببريطانيا أول ما بدأت علي يد البلجيين، واستمرت طيلة عهد الرومان ثم

---

[1]- Lot F., the End of the Ancient world and Beginnings of the Middle Ages , London , 1931 p . 10. ; Downey .G., the late Roman Empire , U.S.A , 1969, pp. 6-7 ; Hay ,op. cit., p. 4 ; painter , op .cit. , p.7.

[٢] - رواس : المرجع السابق ، صـ١٣، ١٤.

- John Richard Green, op. cit., p. 5.

وقفت زمنا إلي مجئ السكسون، ثم ما لبث السكسون أن أجروها في كثير من القوة والنشاط إذ مكنتهم محاريثهم الثقيلة من الزراعة في الأراضي التي استعصت من قبل علي غيرهم، واتبعوا مجاري الأنهار حتي حولوا العياض وبطون الأودية إلى مزارع إنجليزية، علي حين ازداد العمل في زمنهم لقطع الغابات الكثيرة(١).

ثالثا:- المؤثرات الرومانية في الجزر البريطانية :-

الواقع أن احتلال الرومان للجزيرة البريطانية جعلها جزءا من العالم المتحضر، بعد أن كانت في عزلة تامة عنه وظلت بريطانيا ما يقرب من أربعة قرون تابعة للإمبراطورية الرومانية ويعتبر المؤرخون المائة سنة الواقعة بين سنة ٢٥٠م، ٣٥٠م العصر الذهبي في بريطانيا الرومانية. فإلي جانب السور الهادرياني الذي يعتبر من أروع ما خلف الرومان من الآثار في أي بلد من العالم التي حكموها، اعتني الرومان بمد الطرق وبناء القلاع علي طول تلك الطرق مع شحن القلاع بالحاميات من الجند الرومان الذين بلغ عددهم أربعين ألفا من الجيش النظامي، وأخذت تلك الكتائب علي عاتقها حماية السكان من غارات الاسكتلدنين والايرلنديين، وكان هناك ثلاثة مراكز دفاعية هي يورك وتشستر وكارليون التي عجزت روما عن إخضاع القبائل الكاسرة خلفها في الشمال والغرب وعن اتصال مدنيتها إليها (٢).

ولقد قام الرومان بالعديد من الإصلاحات الهامة في بريطانيا والتي تمثلت في تشجيع الصناعة والزراعة والتجارة وشق الطرق وإقامة المدن وبناء المنازل والحمامات وحفر القنوات وتطهيرها، واستغلال ثروات بريطانيا الطبيعية كالغابات واستغلالها في بناء السفن الحربية، وكذلك الأحجار الكريمة التي تميز عنها الجزر البريطانية دون غيرها في ذلك الوقت. واستغلال الصفيح والنحاس والذهب والقصدير، وكذلك الرصاص لما له من أهمية خاصة في الصناعات في ذلك الوقت، بحيث يخلطه الرومان بالفضة لسك العملة الرومانية (٣).

---

١ - رواس : المرجع السابق صـ١٤، ١٥.

- Wood Ward, op. cit., p.7-10 ; Wilson P., The Anglo –Saxon, London , 1972, p.27.

٢ - نظير حسان سعداوي :المرجع السابق، صـ١٨.

- Robinson , op .cit., pp. 401-403 ; Downey , op. cit., p.4.

٣ -العملات الفضية (الدينار الفضي) denarius- أخذت في التدهور والهبوط المستمر منذ عهد الإمبراطور ماركوس أوريليوس (١٦١-١٨٠م) الذي أنقص الدينار إلي خمسة وسبعون في المائة من الوحدات الفضية، وبلغ مقدار النقص في قيمته خمسين في المائة تحت حكم سفيروس، ثم واصل انخفاضه حتي صار في عهد جالينوس (٢٦٠- ٢٦٨م) عمله نحاسية مغطاة بطبقة رقيقة من الفضة بلغت خمسة في المائة من الوحدات الفضية، وعلاوة علي ذلك كان السستريوس

ومما هو جدير بالذكر أن هذه الإصلاحات في شبكة الطرق والأنهار والمواصلات قد حظيت برعاية الأباطرة، وتأمين السير فيها ليلا ونهاراً، وساعد ذلك علي نشاط حركة التجارة وتبادل السلع، وأصبح معظم سكان الإمبراطورية يشتركون في مستوي عام للحياة، وليس أدل علي ذلك من الدينار الروماني كانت قيمته في أسواق بلاد الراين تساوي قيمته في شمال أفريقيا ومن ثم فقد حاز ثقة متساوية في هذه البلاد، ومما زاد من التجانس والترابط ودعم الوحدة بين رعايا الإمبراطورية وأقاليمها المرسوم الذي أصدره الإمبراطور كراكلا – Caracalla-(٢١١-٢١٧م) عام ٢١٢م والذي منح بواسطته معظم الرعايا حقوق المواطنة الرومانية، وترتب عليه اختفاء ما كان يشعر به سكان الأقاليم من أنهم أقل مكانة من المواطن الروماني(١).

ويلاحظ أن القوات العسكرية الرومانية لم تحتل إلا مكانا خلفيا علي مسرح الحوادث في الولايات الرومانية وتستخدم تلك القوات في شق الطرق وتشييد المنتديات الرياضية وإقامة عيون المياه، لا تقحم نفسها علي الناس إلا في الثورات فمعسكراتها الكبيرة التي كانت تقام علي الحدود بعيدة عن الأعين وامتازت الطرق بالاستقامة والدوران حول الولاية كلها عبر الغابات والسهول والهضاب، لتخدم الأغراض العسكرية في سرعة وسهولة وسرعان ما تحولت الطرق من تلك الصبغة العسكرية إلي الأغراض السلمية، ولا سيما في الجنوب حيث صارت وسيلة من وسائل التجارة والمواصلات. أما الشمال والغرب فظلت محتفظة بوظيفتها العسكرية، وارتبطت بالحصون ليسهل بواسطتها إخماد الثورات المقلقة لروما، وبلغت الطرق في الجزيرة خمسة آلاف ميل، فضلا عن عدد لا يحصي من الطرق المائية تنقل عليها التجارة الداخلية النشطة(٢).

ولما كانت مدينة لندن ملتقي الطرق جميعها، فإنها باتت قاعدة لتموين الجيوش، ومن ثم صارت المركز الأعظم للتجارة بالجزيرة كلها في العهد الروماني عن كونها قرية صغيرة مؤلفة من أكواخ صغيرة حول برجها المشهور باسمها برج – Tower London - ثم صارت بعد الفتح تشغل مساحة ثلاثمائة

البرونزي – sententious– (ربع دينار) لا يزال يصدر حتي سنة ٢٧٠م، ثم اختفي من التداول بسبب الارتفاع الكبير في الأسعار الأمر الذي أدي إلي التضخم . انظر في ذلك :

-Charles Worth , op .cit., pp. 132-133 ; Richmond , op. cit ., pp. 9-10 ; fisher , op. cit., pp. 118-121.

[1]- Rostoveff M., A History of the Ancient world , Oxford, 1927 , vol.2 , p. 317; Stephenson , Med. Hist., p. 33.

[٢] -نظير سعداوي : المرجع السابق، صـ١٩، ديورانت، جـ٣، م٣، صـ٥٨.

- Carter , op. cit., pp.16-19 ; Chapot , Le Mode Romain , op. cit., pp.103-105 ; Davis , The British Isles from the earliest times , p.3498.

فدان محاطة بالأسوار، وعلا شأنها من الناحيتين الاقتصادية والحربية لحسن موقعها علي نهر التايمز ولأهمية الطرق المتفرعة منها، وزاد عدد سكانها حتي بلغوا ستين ألفا وسرعان ما أصبحت عاصمة بريطانيا بدل كولودونم[١]، ولا يزال أحد شوارع المدينة يحمل اسم سور لندن، كما لا تزال بقايا الطرق التي مدها الرومان هنا وهناك جزءا في معالم الجزيرة في الوقت الحاضر. وكان اتصال الجزيرة بالقارة عن طريق الموانى الكنتية بين رتش بري وبولونيا في فرنسا وبين كولشستر ومصب نهر الراين، فضلا عن الطريق البحري الطويل عبر المحيط فالبحر المتوسط، غير أن نقل الفرق العسكرية كان عن طريق أترخت علي مصب الراين إلى مصب التين في نورثمبرلاند، ويبحر التجار مباشرة من موانى غاليا إلي إيرلندا أو الموانى البريطانية الغربية , واتخذ الأسطول الروماني قاعدته في بولونيا، ومهمته المحافظة علي الأمن والملاحة علي شاطئ القناة الإنجليزي[٢].

حيث وقع التطور الجديد في العصر الروماني ببريطانيا، ولا سيما مدن الجهات الجنوبية والشرقية من الجزيرة وفي أثناء ذلك وتحت حماية روما، وفي ظل الأمن الروماني –Rax Romana- خسر المتحضرون من البريطانيين حيويتهم واستقلالهم إذ أصبحوا مجرد إقليميين تابعين وانقطعت صلتهم بفنون الحرب وتجارب القتال علي حين قامت الكتائب الرومانية التي بلغ جنودها أربعين ألفا من الجيش النظامي – أي عشر مجموع الجيوش الإمبراطورية الرومانية تقريبا – بحماية السكان من غارات الاسكتلنديين من أهل ايرلندا والبكتين من أهل اسكتلندا , واتخذت تلك الجيوش ثلاث قواعد حربية هي يورك وتشستر وكارليون، غير أن سيادة الرومان لم تمتد إلى الأجزاء الغربية من الجزيرة، ولذا ظل الكلتيون في تلك الأجزاء علي حالهم من المعيشة القبلية العفية [٣].

ومن الناحية الإدارية قسم الإمبراطور سفيروس بريطانيا الرومانية إلي قسمين إداريين، وراعي أن يكون ذلك متمشيا مع التقسيم الجغرافي للبلاد، فجعل بريطانيا العليا ذات صبغة عسكرية قاعدتها مدينة يورك، وجعل بريطانيا السفلي ذات صبغة مدنية وقاعدتها لندن، حيث أقامت هيئة الحكومة ولم يقتصر نشاط روما في بريطانيا علي أعمال الضبط والربط، وإنما أمتد إلي النواحي العمرانية التي يعم نفعها علي الحاكم والمحكوم , فاهتموا بالريف وشيدا الضواحي الريفية

---

[١] -نظر حسان سعداوي : المرجع السابق صـ ١٩.

Barrow G., & Edward M., Documents Medieval History , Vol .7, Suffolk , 1984, p. 146 .

[2]- Haverford , Roman Britain Cam. Med. Hist., vol , pp 376-377 ; Cantor N.F., Medieval world 300-1300, New York , 1963, p. 228.

[٣] - رواس :المرجع السابق، صـ١٥-١٦ .

- E.H.D. op.cit., p.148; parker , op .cit., p.2 ; Fisher , op .cit., p.122.

بالجهات الزراعية المستحدثة في الغابات والمرتفعات الخضراء مثل تشدورث – Chedworth- المنشأة سنة ١٨٨م بمقاطعة جوسترين وتلال كوتسولدز، وتقع اليوم علي بعد خمسين ميلا تقريبا من مدينة أكسفورد ومازال يوجد بها بقايا من الحمامات وتوصيلات المياه وحجرة التدفئة وصالة الأكل وحجرة النوم وحجرة غزل الصوف والسور الذي يحيطها، وتدين إنجلترا إلي اليوم للرومان بكثير من أنواع الفاكهة مثل الفتاح والكمثري والفراولة وغيرها، كما أدخلت الكثير من أنواع الطيور[١].

ويذكر ديورانت – أن الرومان اهتموا بتخطيط المدن وإنشاء الحمامات وتوصيل المياه للمنازل واستخدام الحجر في البناء ومنحوا بعض المدن البريطانية الكبرى حكما ذاتيا، بلغت بفضله مرتبة المستعمرات المستقلة , فأصبحت تشرف عليها مجالس الشيوخ، وجمعيات وطنية وحكام من أهلها، وترك الريف إلي رؤساء القبائل الخاضعين لإشراف الرومان، وكانت أربع من هذه المدن يتمتع أهلها بحق المواطنة الرومانية وهي كمولودنم – Camulodunum- كولشستر – Colchester- الحالية أولي عواصم بريطانيا الرومانية ومقر مجلس الولاية، ولندم Lindum- لنكولن الحالية وإبراكم – Eboracum- يورك حاليا وكانت وقتئذ مركزا هاما وجليفم –Glevum- (جلوسستر حاليا) وبدأت تشستر ودنشستر ورشستر، وشيشستر وليستر ومانشستر مدن صغري في القرنين الأول والثاني من حكم الرومان. وكان في اكواسالس – Aquaesallis- (المياه المالحة) التي تعرف باسم باث –Bath- عيون حارة أصبحت بفضلها ملاذا طيبا في الزمن القديم[٢].

وقد أسست هذه المدن خلال القرن الأول بواسطة جنود الحاميات الرومانية، فيما عدا يورك فيرجع قيامها إلي القرن الرابع , ويلي هذه المدن في الأهمية الاجتماعية عددا أخر يتراوح بين عشرة وخمس عشرة مدينة، وهي دون السابقة في الحجم ومظاهر الحياة الاجتماعية ومدي صبغها بالصبغة الرومانية. ولا شك أن عدداً غير قليل من تلك المدن الرومانية البريطانية القديمة اندثر، وظل معظمها باقياً إلي اليوم ليدل علي ناحية أخري من التراث الروماني في بريطانيا الحديثة وهو تحديد الكثير من مواضع المدن الحالية[٣].

والحقيقة أن الصلة لم تنقطع بين ولاية بريطانيا والدولة الرومانية، وأن روما لم تتخل عن تلك الولاية تخليا رسميا، ولم تتخذ قرارا بالجلاء عن أرض ظلت طوال أربعة من القرون مصدر للثروة ومدعاة للفخر، بسبب ما اقامه

---

[١] - نظير حسان سعداوي : المرجع السابق ، صـ٢٠.
Jones A.H.M., The Decline world , London , 1975 , pp.10-14.

[٢] - ول ديورانت : جـ٣، م٣، صـ٥٦-٥٧.

[3] Have field , Roman Britain , Com. Med. Hist. , vol.1, p.373 ; Davis, the British isles , op.cit., pp. 349- 3502-.

الرومان في أرجائها من طرق معبدة ومدن عامرة وضواح بهيجة، فضلا عما وجدوه بها من رقيق وافر ومعادن كثيرة وزراعات جمة ومصحات ذات مياه طيبة، وآضحال زاخرة بانواع الأسماك المحارية الشهية والحقيقة أن قطيعة الولاية البريطانية جاءت نتيجة لحوادث لم يكن لروما عليها سلطان. بل ترك البريطانيون وشأنهم للدفاع عن أنفسهم بما استطاعوا من وسائل الدفاع، فلم يلبثوا أن تهدموا قبالة الخطر المحدق بهم من ناحية البكتين والاسكتلنديين في الشمال، وناحية القراصنة من السكسون الجرمان في الجنوب. أما المقاومة التي استطاع البريطانيون أن يبذلوها ضد ذلك الخطر المزدوج. فلا سبيل إلي معرفة درجاتها من الشدة أو مدتها من الزمن إلا عن طريق الحدس والخيال لأنه، ليس يوجد من أخيار بريطانيا في تلك المحنة إلا النذر القليل[١].

وأن انحصرت صادرات بريطانيا في الصفيح والرصاص وقليل من اللؤلؤ والجلود والعبيد والحبوب، وزاحمت السلع الرومانية مثل الأواني الساموسية الفن الكلتي، وطاردته حتي قتلت صناعته وما بها من نمازج موسومة بطابع الخيال الذي يشبه الأحلام غير أن تدهور الحياة الاقتصادية بالمدن جعل المحور الاقتصادي ينتقل إلي الريف حيث الماشية والأغنام والعناية بالزراعة وقطع الغابات وتحويلها إلي أراضي زراعية غنية، فنشطت الحياة حول الضواحي الريفية التي شيدها الرومان بالجهات الزراعية المستحدثة من الغابات والمرتفعات الخضراء. وغدت بريطانيا إحدى الولايات الغنية الكبري التي تمون روما سنويا بالغلال والماشية [٢].

ومهما يكن من شئ فإنه علي الرغم من الحروب التي خاضها الشعب، ومن المظالم القاسية التي تعرض لها فقد بقي له دائما تعطشه الذي لا تنفع له غلة إلي الحرية والعدل كامنا في قلبه. ومن اجل هذا الحب للحرية والعدل علي مر القرون، استطاع هذا الشعب في بطئ وإناه وبعد طول معاناة وتعرض لنكسات كثيرة، أن يصوغ لنفسه من خلال الصبر والمثابرة نظاما للحكم، جعلهم أكثر الناس حرية علي ظهر البسيطة وفي الوقت نفسه صان هذه الحرية وحفظها[٣].

<u>رابعا: الإمبراطورية الرومانية قبيل الغزو:</u>

أخذت الإمبراطورية الرومانية تدخل في دور الاضمحلال والانحلال، وفي أثناء ذلك اظهر الكلتيون أعظم ما فيهم من قوة وقدرة، وتركوا بصفحات التاريخ من أعمالهم أثار خالدة. ثم سرت بجميع الشعوب الساكنة فيما وراء الحدود

---

[١] -هـ. أ.ل. فشر : تاريخ أوربا في العصور الوسطي، القسم الأول، ترجمة محمد مصطفي زيادة والسعيد الباز العريني، دار المعارف، ط١، ١٩٥٠، صـ٣٧ .

[٢] - نظير حسان سعداوي : المرجع السابق ، صـ٢١-٢٢.

[٣] - جيمس دوورتي : المجنا كارتا , العهد الأعظم ، صـ١٩.

الرومانية حركة غرضها الانثيال نحو أراضي الإمبراطورية، وأغراها بذلك ضعف الحكومة في روما، فضلا عما حل بالدولة من الانهيار الاقتصادي، فما بدت أثاره في أرجائها منذ سنين ولم يكن في ذلك ما يدعو إلي الآسف، أو العجب إذ أنه في النهاية إلي تنشيط الشعوب الأوربية بعناصر جديدة ولا عبره لقول المؤرخين الذين قالوا إبان انتهاء الإمبراطورية الرومانية كارثة غامضة تعبت الأقلام في تعليلها، فقد كان طبيعيا أن تنتهي في يوم من الأيام، وإنما الذي يدعو إلي العجب أنها عمرت حتي طال عليها العمر ثم أن انتهاء تلك الإمبراطورية وما تخلله من اضطراب وتنشيط للشعوب بما دخل عليها من عناصر جديدة، قد تمخضت عنه الأمم الأوربية الحديثة بما فيها من خصب عظيم وتنوع وقدره علي الابتكار[١].

ويعتبر القرنيين الأول والثاني من أزهي عصور الإمبراطورية الرومانية، وأكثر تحديدا الفترة الواقعة بين ٢٧ ق.م عند اعتلاء أغسطس العرش، ووفاء ماركوس أوريليوس سنة ١٨٠م. وهذه الفترة هي السلام العظيم الذي ساد منطقة البحر المتوسط ومعظم وسط وغرب أوربا، وهذه الفترة أرقي ما شهد الجنس في الغرب، والسبب في ذلك أن ضغط القبائل الجرمانية المتبربرة لم يكن لها تأثير يذكر علي حدود الإمبراطورية ثم تخفيف عبئ الضرائب والتسامح الديني والسماح للسكان باستخدام لغتهم المحلية، وارتفاع مستوي الحياة الاقتصادية واستقلال الولايات في أداره شئونها [٢].

ولكن دوام الحال من المحال، فقد تبدل وتغير حال الإمبراطورية خلال القرن الثالث الميلادي حتي أصبح يطلق علي هذا القرن " أزمة القرن الثالث " وهذه الأزمة شملت الأوضاع الداخلية والخارجية وسوف نركز علي الأوضاع الخارجية وخلال هذا القرن زاد ضغط البرابرة الجرمان[٣]، علي خطوط ودفاعات الإمبراطورية، ومن هؤلاء كانت شعوب البكت والسكوت في بريطانيا تغير علي

---

[١] - رواس :المرجع السابق , صـ١٦-١٧.

[2]- Barrow R.H , The Romans Britain , pp. 162-165.

[٣] - الجرمان : أطلق الرومان اسم الجرمان أو جرمانيا علي البلاد الواقعة خارج حدود إمبراطوريتهم في أوربا، وهي بلاد ذات غابات كثيفة شديدة البرودة بالنسبة لمناخ البحر المتوسط ، كما أطلقوا علي سكانها لقب البرابرة جريا علي عادة اليونان القدماء الذين أطلقوا كلمة برابرة علي كل الأجانب ولو كانوا في مثل حضارتهم، واستمد المؤرخون معلوماتهم عن جرمانيا وقبائلها من مذكرات يوليوس قيصر ووصفة لهذه القبائل التي عرفها في أثناء حربة في بلاد الغال. كما أستمدوها أيضا من وصف المؤرخ تاكيتوس لهذه القبائل، إذ ألف كتابا في أحوال معيشتهم ومواطنهم وعاداتهم ونظمهم وأسماه " بحث في أصول الشعوب الجرمانية ووطنها وطرق معيشتها ". de origine situ morbus at populis - Germaniae.

أنظر في ذلك : -

- فشر : المرجع السابق، صـ١٩.

-Trevelyan H.O., The Mediaeval Mind , vol.1 , London , 1936 , p.138.

سور هادريان، وتقوم بإحداث القلاقل والاضطراب للحاميات الرومانية، ولكن هجماتهم لم تكن ذات تأثير قوي، أما الخطر الأعظم الأقوى كان ياتي من الشمال فيما وراء نهري الراين والدانوب. فقد كان الجرمان يمثلون الخطر الأعظم بسبب تمركزهم علي الحدود مع الإمبراطورية الرومانية، وكذلك طمعهم في ثروات الإمبراطورية وما احتوته ولاياتها من ثراء عظيم، الأمر الذي جعلهم يقومون بإغارات بهدف الحصول علي غنائم وخيرات الإمبراطورية وأن الإمبراطورية غير قادرة علي حماية حدودها من قبائل الجرمان، فكانت دائما ما تلجأ إلى الطرق الدبلوماسية. وجري عدة اتفاقيات بين الحكومة الرومانية وزعماء القبائل الجرمانية المجاورة لحدود الإمبراطورية نصت علي أن تقوم الإمبراطورية بحماية القبائل المتبربرة من جيرانها في مقابل أن تقوم هذه القبائل بمنع رعاياها من الإغارة علي الإمبراطورية. وقد قامت القوات الرومانية المعسكرة علي جبهتي الراين والدانوب بواجباتها لكبح جماح هؤلاء البرابرة [١].

وعلي أية حال أن لفظ بربري –Barbaria- الذي أطلقه الرومان علي الشعوب المستقرة فيما وراء نهري الراين والدانوب قديم جدا، فقد ظهر في الإلياذة، وهو يدل علي الاحتقار والإزدراء وتحول معني اللفظ عند المفكرين اليونانيين ليدل علي الشعوب، التي وجدها اليونانيين لا تتحدث اليونانية. ومن ثم فإن مدلول لفظ بربري أصبح مرادفا لكلمة فظ أو غير مثقف ولكن ما ينبغي أن ندركه أن لفظ البربرية لا يعني الهمجية والوحشية عن اليونانيين، ولكنها تعني مرحلة من مراحل التنظيم السياسي والاجتماعي القبلي في مرحلته البدائية، والذي لم يرقي بعد إلي مرحلة الاستقرار المدني وإقامة الدولة ذات الحدود الثابتة[٢].

ولقد كانت الإمبراطورية الرومانية محاطة بالبرابرة من جميع جهاتها في الشمال الشرقي- بين جبال أورال والطاي – وجاءت الشعوب المغولية أصلا من مناطق الاستبس في أواسط أسيا واشتملت علي العديد من الجماعات مثل السكيثيين –Scytheans- والسارماتين –Sarmatians- والأفار والمجريين والهون والبلغار والترك والمغول، وهم أقوام بدور رحل لا يعرفون الزراعة، وعاشوا علي رعي الخيول وتربيتها، وكثيراً ما دخلوا في حروب مع الإمبراطورية الرومانية، وان اختلفوا عن الجرمان الذين شكلوا المادة البشرية لأوربا الحديثة[٣].

ولقد اختلفت الإمبراطورية الرومانية عن أية إمبراطورية أخرى شاهدها العالم القديم. فقد اتسعت دائرة نفوذ الرومان ودخلت في حوزتهم شعوب وأجناس

1- Barrow R.H. , The Romans Britain , pp. 162-165.
2- Dawson C., The Making of Europe , London , 1935 , p. 68.
3- Stephenson , Mediaeval Europe , p.48.

متباينة، مارست أنظمتها الاجتماعية ومعتقداتها الدينية ولغاتها وتقاليدها وقوانينها وتنقسم الشعوب الجرمانية إلي قسمين: الأول: هم الشعوب الجرمانية الشمالية والشرقية، وهم سكان شبه جزيرة اسكندناوة وما حولها وتفرغت عنهم الأمم السويدية والنرويجية والدانية الحالية، وتمتد مساكن الشرقيين بين الألب والفستولا وسواحل البحر الأسود، في حين امتدت مساكن الغربيين بين الألب والراين وأهم قبائل الشعوب الجرمانية الغربية: الكمبري والشاتي والماركوني والتيتون والشيروسكي والكوادي والثور نجيين والجوتنج والإليماني والسويفي، أما القسم الثاني: اشتمل علي مجموعة من الشعوب الجرمانية الشرقية علي قبائل وجماعات عديدة لعبت دورا هاما في تاريخ أوربا العصور الوسطي مثل قبائل القوط والواندل والجيبيداي والبرجنديين والسكريين والهيرولي واللومبارديين[1].

وطالما أن تلك القبائل البربرية بمعتقداتها وتقاليدها ونظمها وقوانينها لا تتعارض مع سلامة الإمبراطورية وأمنها وطالما أنهم يدفعون الضرائب المقررة عليهم وبروح المرونة الكافية التي أظهرها الرومان تجاه الشعوب الخاضعة لهم فضلا عن الوحدة الحضارية والحكومة المنظمة ولم يعرفوا العنصرية آفة العصور القديمة[2].

ولكن أحوال الإمبراطورية الرومانية أصابتها يد التبديل والتغير في القرن الثالث، بسبب ما أصابها من ضعف وجمود انعكاسا علي جميع أحوالها الاقتصادية والسياسية والاجتماعية، مما أدي في النهاية إلي القضاء علي مجدها الزاهر ومكانتها العالية وأيسر ما يقال في هذا الصدد أن الرومان في القرن الثالث كانوا يخدعون أنفسهم صحيح أن البناء الخارجي لمجتمعهم ظل قائما إلي حد ما، إلا أن روح الإمبراطورية كانت قد ماتت حقيقة من الداخل. وبمعني أخر يمكن القول أن المشاكل العديدة التي ألمت بالإمبراطورية ابتداء من ذلك القرن وتضافرت ضدها، ساعدت في المقابل علي إيجاد ثغره استطاعت القبائل الجرمانية المتبربرة أن تنفذ منها إلي قلب الإمبراطورية، وتعمل علي سقوطها في القرن الخامس[3].

ومن الناحية الاقتصادية فقد ساءت الأحوال الاقتصادية في الإمبراطورية، نتيجة لكثرة الحروب الأهلية التي مزقت وحدة الدولة، وجعلت طرق التجارة غير مأمونة في البر والبحر، وزاد الطين بله ثقل عبء الضرائب في القرن الثالث، سواء تلك التي فرضتها الحكومة المركزية، أو التي جمعتها السلطات المحلية، وذلك أن الإمبراطورية أصبحت مقسمة إلي دوائر جمركية عديدة في حين فرضت

1- Lot F., les Invasion Germaniums , Paris , 1935 , pp. 30-32.

2- Hay , op . cit , p.4.

٣ - محمود الحويري : سقوط الإمبراطورية الرومانية ، صـ١٤.

- Sinnigen .W,G., & Book .E.R. , A History of Rome to A.D.565, Six Edition U.S.A , 1977.

الضرائب علي جميع السلع التجارية بنسبة ٢%، ١٢% هذا فضلا عما فرضته المدن من ضرائب صغيرة علي المأكولات كالخضر والفاكهة والطيور واللحوم – التي ترد إليها من الأقاليم المجاورة. وكان من المتبع أحيانا أن تكون هذه الضرائب عينية أي تؤخذ من نوع البضاعة أو الصنف بعكس الحال في الضريبة الذهبية الفضية –Chrysargyum- وهي الضريبة الرئيسة في الإنتاج الصناعي، والتي سميت بهذا الاسم لأنها كانت تدفع نقدا [١].

وفي بداية الفتوحات الرومانية واتساع أملاكها وفي طور نشأتها تدفقت الثورات الهائلة عليها فمالت الطبقات الاجتماعية العليا في المجتمع الروماني إلي الترف والرفاهية والإسراف وتكالبت هذه الطبقة الراقية علي معدني الذهب والفضة اللذين ظهر في صورة أدوات للزينة أو آوان وصحاف. ولا ريب أن استغلال الذهب والفضة بهذه الوسيلة أدي إلي تجميدها واستبعادها من سوق العملة – ومع ازدياد هجمات القبائل الجرمانية خلال القرن الثالث، وفي الوقت الذي قل فيه الذهب ونضب معينة بسبب كثرة الحروب مع البرابرة الجرمان، وكذلك لم تحاول الحكومة الرومانية أن تبحث عن مصادر جديدة للمعادن الثمينة فأصبحت هناك أزمة اقتصادية لعدم وجود الذهب والفضة[٢].

ومهما يكن من أمر، فإن العبء الأكبر للضرائب وقع علي أراضي المزارعين، فالمعروف أنه إلي جانب الطبقات العليا في المجتمع، كانت توجد هناك طبقات أخري تعيش في القري والريف أخذت تظهر شيئا فشيئا في عالم المدينة والحضارة. ولكنها كانت تري أنها أقل شأنا ومكانة اجتماعية في المجتمع الروماني، أما كبار الملاك فقد تحرروا من عبء دفع الضرائب الباهظة وألقوا به علي كواهل المستأجرين عن طريق رفع قيمة الإيجار أو عن طريق أثقالهم بالالتزام والخدمات التي يتعين عليهم أداؤها للمالك أما المزارع الصغير فكان يلجاء إلي رهن أرضه عندما يعجز عن الوفاء بما عليه من ضرائب، وعندئذ يستولى كبار الملاك علي أراضيهم ويصبح صغار الملاك أقنانا ووقف أباطرة القرنين الأول والثاني بجانب صغار المستأجرين، حيث شجعوهم علي الزراعة وحددوا بدقة العلاقة التي كانت قائمة بين المستأجرين الأحرار وملاك الأراضي في الأرض التي يملكها كبار الملاك، أو أراضي التاج فراح القانون يدافع عن الطبقة المطحونة – فئة صغار الملاك- حتي تتساوي مع الطبقة الوسطي[٣].

---

[١] - سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق، صـ٣٢.

- Charles Worth , The Roman Empire , pp.70-81 ; Lot , The End of the Ancient world , p. 121 ; Rostovtzeff , op .cit., p. 317.

[2]- Kent J.C. & Painter K.S., Wealth of the Roman world Gold and Silver, A.D 300-700 British museum , 1977, p.15.

[3]Rostovstzeff , A Hist. of the Ancient world , vol.2 , pp.313-317 ; Kat & the Decline of Rome, p.37.

ولجأت الدولة إلى زيادة الضرائب نظرا لتدهور حركة التجارة، وانتشار قطاع الطرق وأعمال القرصنة في الطرق البرية والبحرية. وكذلك لحاجتها المستمرة والمتزايدة في النفقات، وقد تهرب كبار الملاك وساكني المدن من دفع الضرائب، لذلك لجأوا إلي الهروب من أراضيهم أو التنازل عنها لكبار الملاك فأدي إلي تدهور الزراعة. وكذلك توقفت الصناعة، وتعرضت المدن والقري للسلب والنهب بالإضافة إلي ذلك أقرت الحكومة الرومانية ضريبة إجبارية يؤدها أهل الولاية نقدا أو سخره وذلك لصيانة الطرق والجسور والقنوات وكافة المرافق في الإمبراطورية [١].

والحقيقة أن كثرة نفقات الإمبراطورية الباهظة التي تكلفتها حملتها مالا تطيق، وأثقلت كاهل الخزانة الإمبراطورية فقصور الأباطرة الرائعة الضخمة المليئة بالتحف الثمينة، وحياة البذخ التي عاشتها هذه القصور، بالإضافة إلي الحشود الهائلة من الموظفين في القصور والخدم والحرس ونفقات الجيش الضخمة كل ذلك أدي إلي إرهاق الخزانة بالإضافة إلي فساد الموظفين والإداريين وانتشار الفساد بينهم والرشوة وثقل الضرائب المفروضة علي الفقراء، وأعباء الحروب الأهلية داخل الإمبراطورية، كل ذلك أثر علي الاقتصاد ولقد تفاقمت الأزمة بسبب حاجة الأباطرة إلي الأموال الكافية فقد لجأ الأباطرة إلي سك مقادير كبيرة من العملة مما قلل من قيمتها[٢].

وقد أدي استمرار الأنهيار الاقتصادي إلي حدوث أثار سيئة علي قيمة العملة النقدية المتداولة في الإمبراطورية، فلقد سك الأباطرة مقادير كبيرة من العملات، ولأنهم لم تتوافر لديهم المعادن النفيسة (كالذهب والفضة اللازمة لسك النقود) فقد لجأوا إلي خلط الذهب بالفضة، وخلط الفضة بالنحاس، وخلط النحاس بالرصاص، ومن ثم فقد ترتب علي ذلك انخفاض قيمة العملة، الأمر الذي أدي إلي تدهور التجارة والصناعة، لأن التجار أحتفظوا بما لديهم من عمله صالحة. والغريب أن الحكومة الرومانية استخدمت هذه العملات الرديئة في تسوية مشاكلها مع دائنيها وفي نفس الوقت لم تقبلها من دافعي الضرائب [٣].

وكانت الحاجة ماسة إلي المال لدفع رواتب الجند خوفا من ثورتهم، هي التي أجبرت الأباطرة علي إنقاص قيمة العملة السائدة، وكان الدينار الفضي – Denarius - في تدهور مستمر أكثر من الأوريوس الذهبي –Aureas- وإن كانت قيمة العملات الفضية أخذت في الهبوط المستمر منذ عهد الإمبراطور ماركوس أوريليوس، الذي انقص الدينار إلي خمسة وسبعين في المائة من الوحدات الفضية وواصل الدينار انخفاض قيمته حتي صار في عهد جالينوس

1- Rostovtzeff , op.cit., vol.2 , pp.317-318.
2- Hay , op .cit p., p.5 ; Painter , op. cit ., p.8.
3- Chapot , op.cit ., pp.107-110 ; Painter , op.cit., p. 9.

عمله نحاسية مغطاة بطبقة رقيقة من الفضة، وكان السستريوس البرنزي – Sestertius- مازال يصدر في الإمبراطورية بسبب ارتفاع الأسعار، وفي أعقاب ذلك يمكن لنا تفسير الثورات العديدة التي انتشرت في الإمبراطورية في مختلف الولايات [١].

والأمر الذي لا خلاف فيه أن نقصان العملة وما صاحبها من ارتفاع كبير في الأسعار، أديا إلي التضخم –Inflation- هذا من ناحية، ومن ناحية أخري رفض من يمتلك عمله فضية خالصة التعامل مع العملات المخلوطة الشائبة، فأدي ذلك إلي اختفاء المعادن الثمينة من التداول في وقت كانت الحاجة أشد ما تكون إليها، وفي مثل تلك الأحوال السيئة التي تدهورت خلالها العملة النقدية. أضربت الأسواق التجارية ورفع التجار أسعار سلعهم، وتعبر مزاولة التجارة في مثل ذلك المناخ أمرا متعذرا فبعد أن كانت قائمة قدم وساق في ولايات الإمبراطورية، ولا تقف في سبيلها أية عقبات أو حواجز، وصلت إلي درجة بالغة السوء فاختفي الإنتاج الكبير وحل محله الإنتاج المحلي الذي يتم تصريفه محليا، وفي غياب عملة مستقرة حلت المقايضة في المعاملات التجارية بين الأهالي، وهي طريقة لا تفي بالغرض المنشود. ويمكن القول أن ما عرفته الإمبراطورية من ازدهار تجاري في القرن الثاني، لم يعد بإمكانها استعادته في معظم أنحاء الغرب الأوربي، وأن كان هناك استثناء وحيد نلمسه في الأقاليم البعيدة مثل بريطانيا، التي وصلت تجارتها إلي مرحلة عالية من التطور في القرنين الثالث والرابع الميلادي [٢].

وانعكس التدهور الاقتصادي علي الزراعة كذلك، بعد أن كانت تعتمد علي عدد كبير من المشتغلين بها في الأقاليم الرومانية، وأصبحت حدود الولايات الرومانية مليئة بالعساكر والقلاع والحصون الرومانية، وفي حالة حرب دائمة وتعج بالمحاربين. لذلك تدهورت الزراعة فنزل بها التلف والخراب، وأصاب الجفاف مساحات هائلة من الأراضي الزراعية، ودمرت المزارع ومخازنها، حتي صار من الصعب علي مالكي الأراضي الزراعية استصلاح ما تخرب منها والعودة بها إلي سابق عهدها. وذلك لقلة المال وارتفاع التكاليف وهجرة الأيدي العاملة حتي صار محصول القمح العصب الرئيسي للإمبراطورية غير متوفر. حتي اسبانيا لم يعد لها فائض من محاصيلها ترسله إلي روما وصارت أرض مصر الخصبة بورا واضطر الأباطرة ومنهم الإمبراطور أوريليان علي إصدار مجموعة

---

[1]- Charles Worth .M.P., The Roman Empire , Great Britain , 1961 ,pp. 132-133 ; Lot the End of the Ancient world p. 121 ; Rostovtzeff , op.cit., vol .2 , p.317.

[٢] -محمود الحويري :المرجع السابق ، صـ١٦.

Robinson C.E., A Hist of Europe Ancient & Medieval , U.S.A ,1920 , pp.401-402.

من القرارات لتأمين مزارعين الحقول المهملة، وأدي ذلك إلي استحالة دفع الضرائب الفادحة، والتي وقع عبئها علي صغار المزارعين وصغار المستأجرين في الوقت الذي كان فيه كبار الملاك يدفعون الضرائب المستحقة عليهم [١].

أما من الناحية الاجتماعية فنجد أن المجتمع الروماني كان مجتمعا طبقيا، وقد تألفت طبقاته من فئات متعددة بينها فوارق واضحة، فالطبقة العليا الثرية الأرستقراطية التي تألفت من كبار العائلات الرومانية، وكان منهم السناتو الروماني وكبار الموظفين وأصحاب الاقطاعيات الواسعة، وكذلك كبار الفرسان وقادة الجيش. وهؤلاء تهربوا من دفع الضرائب المقررة عليهم. وقد أثر هذا الوضع علي بناء المجتمع الروماني الذي أختل توازنه نتيجة لأن هؤلاء الأغنياء لم يدفعوا الضرائب المقررة عليهم فازدادوا في غني أما الفقراء فازدادوا فقراً وقهراً ولم تتأثر تلك الطبقات بالأزمات الاقتصادية وخاصة أزمة القرن الثالث الميلادي[٢].

أم الطبقة الوسطي في المدن والأرياف فقد أخذت تتناقص، وسارت في طريق الاضمحلال السريع نتيجة لتحويل أفرادها إلي فئة الأتباع والعبيد، حيث كانت هذه الطبقة هي عصب الحياة في المجتمع الروماني وقد شكلت طبقة الفلاحين القاعدة التي قام عليها هرم المجتمع الإقطاعي في العصور الوسطي، أن هذه الطبقة كانت مصدر الرزق الأساسي لهذا المجتمع، حيث اعتمد عليها رجال الدين والملوك والسادة الإقطاعيون في الحصول علي كل لوازمهم في كافة النواحي. ولقد قدر لهذه الطبقة أن تنهار تحت وطأة الكوارث الاقتصادية التي ألمت بالإمبراطورية من ناحية. وتحت عبء المطالب الباهظة التي فرضت عليها من ناحية أخري وبعد أن كانت تلك الطبقة تؤلف الغالبية العظمي من صغار الملاك انتهت إلي الاضمحلال ومع مرور الزمن تحول أفراد هذه الطبقة إلي فئة العبيد حيث كانت أعدادها أقل من فئة الفلاحين الأحرار وفئة الأقنان ومع مرور الوقت تناقص عدد هذه الفئة، وتحول معظمها إلي فئة أقنان الأرض –**Colni**- برغبتهم وتخلوا عن أراضيهم لكبار الملاك حتي يتخلصوا من أعباء الضرائب المفروضة عليهم. وأن كانت فئة الأقنان أكبر عناصر المجتمع الأوربي الاقطاعي، كما كانت من أسوأ الطبقات حالا، ولكن دون الهبوط إلي مستوي العبيد ولقد كان القن مرتبطا بالأرض كما كانت الأرض مرتبطة به، فلا يمكنه تركها إلا بالهرب منها أو شراء حريته بالمال، هذا إذا وافق السيد الاقطاعي وفي نفس الوقت لم يكن في استطاعة السيد طرده من الأرض إلا في حالة رفضه أداء واجباته القانونية أو ارتكاب جريمة ما [٣].

1- Robinson , op. cit., pp. 402-403.
2- painter , op. cit. , pp. 9-10 ; Rostovtzeff , op. cit .,vol .2 , p317.
3- Downey G., The Roman Empire , U.S.A , 1969 , p.47.

لقد كان الأقنان يعيشون في أكواخ من جذوع الأشجار، غطيت سقوفها وأراضيها بالطين والقش وكانت قذرة وأثاثها حقير، وتتألف من سرير هو في الأصل صندوق خشبي تعلوه وسادة محشوة بالقش، ولم تعرف هذه الأكواخ الإنارة التي كانت موجودة في قصور السادة. ولم يكن للقن ما يشغله بعد غروب الشمس وكان عليه أن ينهض مبكرا مع شروق الشمس، ويأوي إلي فراشه مبكراً مع غروبها كما أن القانون لم يكفل أي نوع من أنواع الحماية للقن، فالسيد له الحق في أن يفعل بالقن ما شاء عدا قتله أو تشويهه ففي أي وقت يريد طرده من الأرض كان يطرده ويستبدله بأخر[١]. ولم يكن مسموحا بان يترك شعره، لأن ذلك يخص الأحرار فقط وكل ما يمتلكه القن هو ملك لسيده الاقطاعي، لذلك يمكن القول " أن القن لم يكن عبدا ولا حراً، وإنما كان وسطا بين هذا وزاك ويمكننا أن نطلق علي الأقنان اسم "إنصاف العبيد" أو "إنصاف الأحرار" أو "رقيق الأرض"، وكان عليهم واجبات لسيدهم الإقطاعي من خدمات ومقررات واحتكارات والتزامات وضرائب متنوعة [٢].

وإذا انتقلنا إلي طبقة العبيد التي كانت تمثل نسبة عظيمة من سكان إيطاليا، نري أن ثمانين في المائة من العمال في الصناعة وفي تجارة الأشتات كانوا من العبيد، كما كانت معظم الأعمال اليدوية والكتابية في المصالح يؤديها عبيد عموميون – Setvi publici- وقد عمل العبيد في ظروف صعبة سيئة جعلت حياتهم بائسة معذبة، ومما يدل علي ذلك حالة أولئك العبيد الذين كانوا يعملون في طاحونة. فهم شاحبوا الوجه عريا إلا مما يكاد يستر عوراتهم، علقت أجراس في أقدامهم، وتخددت أجسادهم من جراء العلامات السوداء، التي خلفتها ضربات السياط، أما عبيد المنازل كانوا أنواعا لا حصر لها تنوعت أعمالهم، وقد لاقوا العذاب والاضطهاد والقسوة علي يد سادتهم، الذين اختلفت أهوائهم ومشاربهم، فكانوا أحيانا يقتلون وأحيانا يضربون ويمكننا أن نلمس المعاملة السيئة التي لقيها عبيد المنازل , إذا علمنا أن احد السادة الرومان كان يصر علي أن يقف خدمه حول المائدة صامتين , وكان يعاقب من يعطس بالجلد كما كان يحدث أن تآمر سيدة رومانية بجلد خادمتها، إذا ما ضايقها اضطرابها في تصفيف شعرها[٣]، علي أن متاعب العبيد أيام الإمبراطورية أخذت تقل شيئا فشيئا أثر

---

[١] -كوبلاند – فينو جرادوف :الإقطاع في العصور الوسطي ، ترجمة محمد مصطفي زيادة ، ط٣، ١٩٥٨، صـ٣٥-٤٠.

[2]- Downey , op.cit., pp.47-48 ; Katz, the Decline of Roman , p.37.
- كوبلاند – فينو جرادوف : المرجع السابق ، صـ٣٥-٤٠.

[٣] - محمود الحويري :المرجع السابق، صـ١٩-٢٠.

- Charles Worth ,op. cit., pp.72-73 ; Bury .J.B., Hist of the Roman Empire formats foundation to the Death of Marcus Aurelius (27 B.c- 180 A.D), London , 1930 ,pp.592-593.

قبولهم أعضاء في الأسر التي كانوا يخدمونها، يضاف إلي ذلك أن العبد كان بإمكانه الإفلات من أغلال العبودية، وينال حريته عادة في ست سنوات بفضل أمانته وتفانيه في خدمة سيده، كما أن ضعف الحكومة الرومانية في القرن الثالث جعل فرار العبيد من سادتهم أمراً سهلاً وميسوراً [١].

وتدخل طبقة العبيد أو الرقيق عند سفح الطبقة الدنيا، ويقال أن عدد العبيد بلغ نحو خمسين مليون عبد، وذكر جيبون – أن العدد بلغ ستون زمن الإمبراطور كلوديوس (٤١- ٥٤م)[٢]، فكيف لنا أن نوفق بين هذه الأرقام الضخمة والخيالية ومن عدد سكان الإمبراطورية الذي قدره المؤرخ –ديفز – بأن كان هناك نقص في عدد سكان الإمبراطورية بشطريها في الشرق والغرب، من حوالي تسعون مليونا إلي سبعون مليونا حتي وصل إلي نحو خمسون مليونا[٣]، وليس هناك تأكيد علي هذه الأرقام سوي ما ذكره المؤرخين من أن الإمبراطورية عرفت بدولة العبيد الأذلاء، بصرف النظر عما في هذه الأرقام من دقة، وذكر أحد المؤرخين أن عدد الأحرار من المواطنين الرومان بلغ نحو عشرة آلاف أو عشرين ألف مواطن فقط لا غير[٤]. وكان المعروف لدي الرومان أن المواطن الحر العادي الذي يمتلك بين خمسة وعشرة آلاف عبد، ويذكر المؤرخين أن أحد العبيد المحررين، أي كان عبدا ثم اعتق فصار حراً، مات زمن الإمبراطور أغسطس، وكان يملك من العبيد أربعة آلاف ومائة وستة عشر عبدا، واعتبر الروقانيين أن الذي لم تزد ملكيته للعبيد عن مائتي عبد أنه دون المؤلف ويعتبره فقير، والمعدوم من المواطنين الرومان هو الذي يمتلك خمسة عبيد أو عشرة [٥].

ومن الواضح أن سكان الإمبراطورية الرومانية خلال القرنيين الثاني والثالث الميلاديين، قد نقص عددهم إلي حد كبير بسبب الطواعين المجاعات والزلازل التي انتشرت آنذاك، ووقعت مجاعة مخيفة في القرن الخامس الميلادي، وأرغمت الكثير من الفقراء علي بيع أطفالهم في أسواق النخاسة مما اضطر الإمبراطور ثيودسيوس الثاني (٤٠٨-٤٥٠م) إلي إصدار مرسوم ألغي به جميع صفقات البيع التي تمت والخاصة بالنخاسة، وإعادة الثمن الذي قبضه البائعون مع فرض غرامه قدرها ٢٠% علي من لا يلتزم بمرسوم الإمبراطور، ومن أسباب نقص السكان أعراض الرومان عن الزواج حيث كانت هناك جوانب كئيبة في حياة العالم الروماني يفصل علماء الدراسات الكلاسيكية أن يغفلوها علي الدوام فقد كانت هناك جموع غفيرة من العبيد وأحياء فقيرة شاسعة تكتظ بالسكان واستشري

---

[١] - كوبلاند وفينوجرادوف :المرجع السابق، صـ٣٥-٤٠.

[2]- Soultar R., A Short History of Med. peoples , London , 1907 , p. 340.

[٣] - إبراهيم علي طرخان : نهاية الإمبراطورية الرومانية في الغرب سنة ٤٧٦، المرجع السابق، صـ١٠١.

[4]- Hodgkin E., Italy and Invaders , Oxford 1892 , vol -2 , p. 559.

[5]- Hodgkin , op .cit. ,vol -2 , p. 559.

هناك الفقر المدقع والشذوذ الجنسي لذلك فسدت أخلاق الرومان، حتي أن المؤرخ أميانوس مارسيللينوس –A. Marcellinus- يري أن جميع المأسي التي تعرضت لها الإمبراطورية، إنما ترجع إلي التدهور الخلقي والفساد الذي استشري في المجتمع الروماني[١] والحقيقة أن عامل نقص السكان كان خطرا علي المجتمع الروماني، لأن الرومان كانوا يميلون إلي الإكثار من النسل لزيادة الأعداد في الإمبراطورية لتساعدهم في عمليات التوسع والفتح. وأن كانت هناك موانع الحمل واسعة الانتشار والتي جربها الفلاسفة والمشرعين، وفي مطلع القرن الأول الميلادي نجد أن الإمبراطور أغسطس أخذ يحث السكان علي الزواج وتكوين الأسر الرومانية [٢].

أما عن القانون فقد عاب بعض المؤرخين علي الإمبراطورية الرومانية في أوائل عهدها وافتقارها إلي وجود قانون وراثي ثابت ينظم وظيفة الإمبراطور، ونحن لا ننكر مدي خطورة هذه الثغرة في النظم الرومانية عندئذ ولكننا يجب أن نعترف بان علاجها لم يكن أمرا يسيرا بالدرجة التي قد نتصورها، ذلك أن ثمة حقيقة كبري ينبغي ألا تغيب عن أذهاننا، هي أن الإمبراطورية في عصرها الأول لم تكن مجرد إمبراطورية في قالب جمهوري فحسب بل استمرار للنظام الجمهوري السابق وامتداد له، مما تعذر معه وضع قانون وراثي ثابت للحكم دون التخلص من هذا القناع الجمهوري الذي استشرت خلفه الإمبراطورية الجديدة. وعلي هذا فقد كان من الصواب أن تحتفظ الإمبراطورية الرومانية بهذا المظهر الجمهوري في عصرها الأول، عندما كان أنصار التقاليد والمبادئ الجمهورية القديمة مازالوا يمثلون أغلبية ذات نفوذ قوي[٣].

أما الجيش فقد كان خادما للإمبراطورية يدافع عن حدودها ويحافظ علي مصالحها، وأصبح الجيش هو السيد المهيمن والخادم المخلص للإمبراطورية، وبؤرة الفساد في الإمبراطورية حيث يحكم الإمبراطور الدولة باسم الجيش فكان الجيش، هو الذي يعين الأباطرة، فأصبحوا لعبة في يده يعين ويعزل من يشاء، ولم تلبث الفرق الإمبراطورية قوام الجيش في الولايات أن أخذت تتحكم في اختيار القادة ودون الرجوع إلي الإمبراطور أو السناتو، والمبدأ المهم أن أصبح الأباطرة غير أكفاء في القرن الثالث الميلادي وتعيينهم في يد الفرق الرومانية فقط [٤].

1- Katz , op. cit., pp.70-77 ; Dill. S., Roman Society in the last Century of the western Empire, London , 1925 , p.290 .

2- Katz , op. cit., pp. 77-87.

٣ - سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق، صـ٢٨-٢٩.

- Thompson , op.cit. , vol .1, p.8 ; Rostovtzeff , op .cit., p. 191.

4- Rostovtzeff, op. cit., vol.2, p.33303 ; Cary M., A History of Rome down to the reign of Constantine , London , 1954 , pp.721-723.

وبعد أن كان الجيش الروماني مصدر قوة وفخر الإمبراطورية ورمز عظمتها، أنعدم النظام فيه وتحول إلي أداة حربية لا تصلح للقيام بالمهام المكلفة بها. واضطر الأباطرة إلي الاعتماد علي القبائل الجرمانية بدلا من الجيش الضعيف في حراسة حدود الإمبراطورية والتي كانت من أول مهام الجيش الروماني أما القوات النظامية فقد تركزت معظمها في المدن وأن كانت مهمتها الأساسية هي الحراسة ونظرا لاتساع حدود الإمبراطورية الرومانية، من جهة الغزوات الجرمانية علي حدود الإمبراطورية من جهة، وعجز الإمبراطورية علي السيطرة من جهة أخري لذلك لجأ الأباطرة الرومان في إحلال الجنود المرتزقة خاصة من الجرمان في الجيش للسيطرة علي حدود الإمبراطورية [١].

ومما زاد الأمور تعقيدا أن الأباطرة أخذوا في إحالة الضباط النظامين ممن ينتمون إلي الطبقة الأرستقراطية إلي الاستيداع خشية تمردهم واستئثارهم بالسلطة وتعين ضابط محترفين من أبناء الشعوب الأجنبية، كل ما كانوا يصبون إليه المغامرة وتحقيق المطامع الشخصية علي حساب الأهداف القومية للرومان وقد أدي هذا إلي وصول بعض الانتهازين إلي مناصب عسكرية عليا، بل وإلي قيادة الجيش الإمبراطوري نفسه[٢]. ولا ينبغي أن يفهم من ذلك أن جميع أباطرة القرن الثالث الميلادي كانوا غير أكفاء فقد ظهر أول الأباطرة العسكريين في ذلك القرن هو سبتميوس سفروس مقدره كبيرة علي الرغم من نزعته الاستبدادية، حتي أن عهده يعتبر مرحلة تحول في تاريخ الإمبراطورية والنظم جميعا، وقد استطاع هذا الإمبراطور أن يؤسس أسرة قصيرة العمر حتي سنة ٢٣٥م، ومهما يكن من أمر فإن الفضل يرجع إلي الإمبراطور سفروس في تاجيل الكارثة التي حلت بالإمبراطورية الرومانية ويتضح نفوذ الجيش الروماني في ذلك الوقت ونصره الأباطرة إلي رجال الجيش في النصيحة التي قدمها هذا الإمبراطور غلي أبنائه وهو علي فراش الموت، إذ قال: "أجذلوا العطاء للجند، ولا تهتموا بالآخرين " [٣].

وهنا نلاحظ أن الفرق المرتزقة من الجرمان وغيرهم من الشعوب الأجنبية صارت عبئا علي الإمبراطورية ظهر خطره واضحا بعد انتهاء حكم الإمبراطور سفروس سنة ٢١١م، إذ دأب خلفاء الإمبراطور علي كسب ودهم وأغداق الهبات عليهم مما أدي إلي القضاء علي هيبة الإمبراطورية ومجدها الحربي [٤].

---

[1]- Hay , op .cit., p. 4.

[٢] - سعيد عبد الفتاح عاشور :المرجع السابق ، صـ٢٩-٣٠ .

- Lot , op. cit., pp.10-11.

[٣] - سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق ، صـ٢٩-٣٠.

-Lot , op .cit., p. 10 ; Stephenson , Med Hist. , p.33.

[٤] - إبراهيم العدوي :المجتمع الأوربي في العصور الوسطي ، ١٩٦١، صـ٢١.

ويتولي الإمبراطور دكيوس –Decius- (٢٤٩-٢٥١م) منصب الإمبراطورية بدأت سلسلة من الأباطرة العسكريين الذين أخذوا يتباعدون عما نبقي من مظاهر الحكم الجمهوري، حتي جعلوا من الجمهورية نظاما استبداديا يعتمد علي الجيش في تنفيذ مشيئة الإمبراطور والضغط علي أهالي الإمبراطور وهكذا امست الحاجة ملحة في الداخل إلي إصلاح النظم الإدارية الخاصة بالولايات فضلا عن نظم الضرائب والعملة، أما في الخارج فقد أخذ يتزايد ضغط البرابرة الجرمان، وبخاصة علي جبهتي الراين والدانوب في الوقت الذي ازداد الخطر الفارسي علي الولايات الأسيوية [١].

أما عن الأخطار الخارجية التي تعرضت لها الإمبراطورية الرومانية، فضلا عن المشاكل الداخلية التي لازمتها لفترة طويلة، فهي الأخطار تتمثل في الغرب وأخطار من الشرق، أما عن الأخطار في الغرب فهي من قبل الجرمان البرابرة الذين أزداد ضغطهم علي حدود الإمبراطورية بتحرك القبائل الجرمانية المستقرة علي جبهتي الراين والدانوب في القرن الثاني الميلادي وتوغلوا داخل حدود الإمبراطورية في القرن الثالث الميلادي[٢]، أما الفرنجة فقد أغاروا علي أراضي الراين الأدنى ٢٣٥ م ثم سنة ٢٥٦م، وفي الجنوب تألف حلف من متباينة أتخذ اسم الأليماني من خلال ممرات الألب مهددين شمال إيطاليا ، وفي عهد الإمبراطور فاليريان دأب البدو الرحل والبربر الضاربون علي الحدود الصحراوية لولاية أفريقية الرومانية علي مهاجمة هذه الولاية مرة أخري لنهب مدنها ومزارعها، هذا في الوقت الذي تطوقت جموع البرابرة المعروفين باسم اللان إلي أسيا الصغري من جهة الشمال الشرقي عبر القوقاز [٣].

أما في الشرق، فقد واجهت الإمبراطورية الرومانية خطرا جديدا ممثلا في دولة الفرس ذات الحضارة العريقة التي تفوق حضارة روما، فكانت العدو القوي المنيع الذي فاق في صلابته جميع القبائل الجرمانية ولذا صار علي الإمبراطورية أن تواجه خطر ذلك العدو علي جبهة الفرات، وبمعني أخر لابد من تعزيز تلك الجبهة رغم ما كانت تعانيه من نقص في الرجال وعلي أي حال بدأ الاحتكاك بين الفرس والرومان عندما قام أرد شير الأول مؤسس الأسرة الساسانية بعبور نهر الفرات سنة٢٢٨م، وعندئذ كتب إليه الإمبراطور الإسكندر سيفيروس رسالة يذكره فيها بالهزائم التي حاقت بالبارثيين علي أيدي الأباطرة تراجان وسبتميوس

---

[١] - سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق ، صـ٣٠.

-lot , op . cit , pp.10-11.

[2]- Hoyt . R & Chodorow S., Europe Middle Ages, U.S.A ,1976, p.22 ; Jones , the Decline of the Ancient world , pp.11-12.

[٣] - سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق، صـ٣٤-٣٥.

- Cary M., A Hist. of Rome down to the Reign of Constantine , London , 1954 , p.723.

سيفيروس الأمر الذي أثار حفيظة أرد شير الأول فاختار أربعمائة من الرجال الأشداء ذوي القامات الفارعة في كامل عدتهم وأسلحتهم، وأرسلهم إلي الإمبراطور الروماني، وأجابه بقوله " أن ما يمتلكه الرومان في أسيا هو أرث لي ويجب علي الرومان الاكتفاء بالانسحاب من أسيا " ثم دارت المعارك بين الجانبين، انتهت إلي وقوع نصبين وحران تحت سيطرة أردشير، وكان بإمكان أردشير أن يدخل إلي سوريا منتصرا، ولكنه انحرف عنها إلي أرمينيا فوقعت في يده بعد مقاومة شديدة [١]. وإذ كان بعض الأباطرة الرومان قد نجحوا في إحراز بعض الانتصارات الجزئية علي الفرس إلا أن هذه الانتصارات ليس معناها وقف الخطر الفارسي أو حتي الإقلال منه [٢]. حيث واصل الفرس، انتصاراتهم علي الرومان والتي بلغت ذروتها عندما استطاع سابور الأول (٢٤١-٢٧٢م)، ابن أردشير الأول – أن ينزل الهزيمة الساحقة بالإمبراطوري فاليريان عند الرها يأسره في عام ٢٦٠م، الأمر الذي زاد من عظمة الأسرة الساسانية في نظر العالم آنذاك. ويروي أن سابور قيد يدي الإمبراطور الروماني بالسلاسل، وأجبره علي خدمته فكان يضع قديمه علي ظهره أثناء ركوبه، إلي أن أفني فاليريان حياته أسيرا بائسا [٣].

ومن المحتمل أن هيبة روما في الشرق الأدنى لم تعد إليها بعد تلك الضربة ولابد أن ذلك الفوز الساساني الذي جد الفرس في تسجيله حفرا في الصخر وتصويرا جصيا علي الجدران، قد انتشر خبره انتشار النار في الهشيم في مدن ذلك العالم الذي امتدت فيه طرق القوافل من شرق البحر المتوسط إلي الخليج الفارسي وانغمس الرومان في حروب مع الجيوش الفارسية، بدا فيها تخاذلها واضحا، ولعل أهم ما كشفت عنه تلك الحروب أن الإمبراطورية الرومانية لم يعد بوسعها المحافظة علي تخومها التقليدية في الشرق إلا بمشقة متزايدة [٤].

وأخيرا في النصف الثاني من القرن الرابع، أراد الإمبراطور جوليان المرتد (٣٦١ -٣٦٣م) أن يضع حدا للخطر الفارسي فأتي بجيوشه إلي انطاكية في خريف سنة ٣٦٢م، وبدأت الحرب بينه وبين الفرس في العام التالي التي انتهت بانتصاره، وفرار الجيش الفارسي وعندئذ أخذ جوليان يتعقب الفرس المقهورين فعبر علي رأس جيوشه نهر الفرات ثم نهر دجله. ولكنه لاقي صعوبات بالغة وكاد يلاقي الهزيمة من جراء الخطة التي اتبعها الفرس أثناء تقهقرهم،

---

[١] - حسن بيرنيا : تاريخ إيران القديم من البداية حتي نهاية العهد الساساني، ترجمة محمد نور الدين عبد المنعم، د. السباعي محمد السباعي مراجعة د.يحي الخشاب ، القاهرة، ١٩٧٩، صـ٢٢٣-٢٢٤.

[2]- Moss , The Birth of the Middle Ages , pp.6-7.

[٣] - حسن بيرنيا :المرجع السابق ، صـ٢٢٦-٢٢٧.

-Cary , op .cit., p.724 .

[٤] - هـ:سانت موس: ميلاد العصور الوسطي ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، السيد الباز العريني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الألف الثاني، ٢٨٥ القاهرة، ١٩٩٨، صـ٢٣-٢٥.

وأرادوا بها إحراق جميع المحصولات في كل جزء يخلونه من البلاد ورغم ذلك تقدم الجيش الروماني حتي طيسفون –Tesiphon- (المدائن) عاصمة الفرس وضرب عليها الحصار ولكنه اضطر إلي الارتداد عنها لعجزه عن الحصار وقلة المؤن، وعندئذ لجأ سابور الثاني إلي الحيلة فاختار رجلين من أشراف الفرس وجدع أنفيهما وأمرهما أن يذهبا إلي جوليان ويدعيا أنهما فرا من عند الملك الفارسي لقسوته عليهما، ثم يقودانه إلي صحراء قاحلة وفعل الرجلان ما أمر به وصدقهما جوليان، ولكنه لم يلبث بعد أن سار مسافة عشرين ميلا حتي وجد نفسه في صحراء جدباء فأدرك الكمين الذي نصب له، وبينما كان يحاول إنقاذ رجاله أصابته سهم فسقط عن ظهر جواده واختلف المؤرخين في أمر السهم الذي أطلق هل هو روماني أم فارسي وأسلم الإمبراطور الروح وهو في الثانية والثلاثين من عمره [١].

ومن الأخطار الخارجية التي واجهتها الإمبراطورية في القرن الثالث، ومن آيات ضعف روما ظهور دولة تدمر –Palmyra- التي لم تعمر طويلا والتي اعتمدت في حياتها علي تجارة القوافل [٢]، وقد بدأت تدمر تلعب دورا مستقلا عن الإمبراطورية الرومانية عندما قام الملك الفارسي سابور الأول بالهجوم علي أملاكها في الشرق، واستدعي الأمر وجود الإمبراطور فاليريان كما ذكرنا من قبل بعد ذلك استطاع أذينة السميدع الذي عرفه الرومان باسم سبتميوس أوديناثوس – Septimius Odenathus– حاكم تدمر أن يحوز ثقة الإمبراطور جالينوس ابن فاليريان، بعد أن ساعده في حربة ضد فارس ويبدو ذلك جليا عندما تصدي أزينة لسابور أثناء رجوعه من أسيا الصغرى إلي فارس، وبدأت الحرب بينهما التي انتهت بانتصار أزينة، وإذلال سابور حتي انه بلغ نهر دجله بصعوبة بالغة ويرجع إليه الفضل أيضا في استعادة المناطق الرومانية التي انتزعها من الفرس في أعالي العراق بل ونقل ميدان الحرب بين الفرس والرومان إلي طيسفون عاصمة فارس ونظير الخدمات التي أدها أذينة للجيش الروماني منحه جالينوس لقب إمبراطور أي زميلا له، وتوفي أزينة سنة ٢٦٧م، وانتقلت السلطة غلي زوجته الجميلة الموهوبة زنوبيا – Zenobia– واعتزمت زنوبيا علي إقامة أسرة حاكمة ومستقلة في الشرق، وأعلنت استقلالها عن روما في عام ٢٧٢م وسارت علي رأس جيوشها إلي مصر أهم مستودع للقمح للرومان واستولت عليها مما أثار مخاوف الإمبراطور أوريليان، والذي زحف علي رأس قواته إلي

---

[١] - محمود الحويري : رؤية في سقوط الإمبراطورية الرومانية، صـ٢٩-٣٠؛ أدوارد جيبون اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها جـ٢، ترجمة محمد سليم سالم، مراجعة أحمد نجيب هاشم، ط٢، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٩٧، صـ٥٣-٦١.

[٢] - محمود الحويري :المرجع السابق، صـ٣١-٣٢ .

- Sinnnigen & Boak , op.cit., pp.393-395 ; Sculiard H., A Hist. of Rome London , 1975 , pp. 513-514.

الشرق، واسترد المناطق التي استولت زنوبيا عليها في أسيا الصغري والتقي في معركة حاسمة مع زنوبيا عند مدينة حمص وألحق بها الهزيمة وارتدت إلى تدمر، وحاصر المدينة واستطاع أسر زنوبيا، وسيقت مكبلة بالأغلال في موكب الإمبراطور أثناء دخوله روما مكللا بتاج النصر [١].

وفي تلك الأوقات الصعبة التي مرت بالإمبراطورية الرومانية في القرن الثالث، وفي ذروة عملية المخاص التي انتهت بظهور الدولة البيزنطية تولي عرش الإمبراطورية دقلديانوس –Diocletian- (٢٨٤- ٣٠٥م) الذي عرف كإداري قدير أكثر من جندي شجاع، تدرج دقلديانوس في عدة مناصب إدارية من القاعدة حتي القمة، رغم أنه كان ديفي الأصل من إقليم إيلليريا المطل علي البحر الإدرياتي. وشاهد دقلديانوس المشكلات والأزمات التي أخذت تنخر في عظام الإمبراطورية في القرن الثالث وازداد خبرة لتولية وظائف متعددة، أهلته ليصبح من المصلحين الناجحين. وما أن تولي دقلديانوس عرش الإمبراطورية سنة ٢٨٤م إلا وأدرك أن هذه الإمبراطورية العظيمة التي تعاني من مشكلات داخلية وغزوات الفرس والجرمان، لا يمكن إدارتها بواسطة حاكم واحد وبوسائل إدارية تقليدية، لهذا أخذ علي عاتقة وتبعه قسطنطين الكبير في ذلك فيما بعد، القيام بإصلاحات تميزت بإقامة سلطة مركزية حازمة مع فصل تام بين السلطتين المدنية والعسكرية [٢].

واستطاع دقلديانوس إخضاع الثورات المتأججة في بريطانيا كما صد البرابرة علي امتداد وجبهتي الراين والدانوب، وفكر دقلديانوس في حماية الإمبراطورية الرومانية من الأخطار الجسيمة التي تهدده، وذلك بإنشاء قوة حربية متنقلة لتتحرك في أي وقت إلي أية جهة حسب الوضع في المناطق المختلفة علي حدود الإمبراطورية [٣].

ونجح الرومان في احتلال بريطانيا ما يزيد علي أربعة قرون بفضل اعتمادهم علي القوة الحربية، وعنايتهم بمد الطرق المعبدة، وتزويدها بالقلاع الحصينة، ورداءة تسليح البريطانيين وتفككهم وسوء تنظيمهم فضلا عن أن الرومان كانوا يمزجون السياسة بالقوة ولا يدخلون علي العادات والتقاليد المحلية من التغيير، إلا ما تدعوا إليه الضرورة فكانوا لا يهاجمون من العبادات إلا ذلك النوع الذي يهدف إلي أغراض سياسية كعبادة الدرويداي – Druidae– مع الإبقاء علي القوانين والنظم القديمة التي يرونها صالحة للبقاء للشعوب المختلطة

---

[٢] - حسنين محمد ربيع : دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية، دار النهضة العربية ١٩٨٣، صـ١٧-١٨ .

- Rostovtzeff , op. cit., vol.2 , p.320 ; Vasiliev, Byzantine Empire , vol.1, p.60 ; Bloch, L 'Empire Romaine , pp. 188-198.

[3]- Thompson , op.cit.,vol .1, p.17 ; Stephenson, Med. Hist , p .38.

الخاضعة لروما من شعور جميل من الإخاء، لا تشوبه روح التعصب الحديث للعقيدة والجنس والقومية واللغة والدين [١].

واهتم النبلاء البريطانيين باللاتينية، وأصبحوا هم وعبيدهم يتكلمون بها، ولقد ساعد علي استمرار المؤثرات الرومانية في بريطانيا بعد الفتح أمران : أولهما اهتمام الحكومة المحلية القائمة علي المدنيين الرومانيين بنشر الثقافة الرومانية، وثانيهما الحركة الأتوماتيكية للتطور نفسه إذ هاجر عدد كبير جدا من الفلاحين والتجار الإيطاليين إلي بريطانيا، وأسهموا بنصيب وافر في تثقيف البريطانيين والوقوف علي قواعد حضارتهم كما يتضح ذلك في مدينة فيرولانيوم –Verulanium- الواقعة بجوار سانت البانز بمقاطعة كنت، حيث تأورم أهلها وحصلوا علي الحكم الذاتي وأصبحوا أحرار من الحكم الروماني [٢].

وكانت النتيجة الحتمية في نهاية المطاف أن خسر المتحضرون من البريطانيين حيويتهم واستقلالهم تحت حماية روما، واستحوذت مباهج الرزيلة شيئا فشيئا علي قلوبهم، وأصبحوا مجرد تابعين وانقطعت صلتهم بفنون الحرب وتجارب القتال، إلي أن درأت عجلة الزمن وحل الانهيار الاقتصادي بالدولة الرومانية، ودخلت أجهزتها الإدارية والسياسية في دور الانحلال والاضمحلال لأسباب عديدة منها ضعف السلطة المركزية في روما وقيام الحروب الأهلية بين أبنائها، واضطهاد رعاياها من المسيحيين أيام الإمبراطور دقلديانوس بنوع خاص، وكان نصيب بريطانيا الرومانية منه استشهاد القديس إلبان سنة ٣٠٤م، وتحمل قرية سانت إلبانز اسمه إلي اليوم[٣]، وظل الاضطهاد مستمرا حيث أصدر خلال عامي ٣٠٣ – ٣٠٤م أربعة مراسيم قضت بهدم الكنائس، وسجن رجال الدين، وتقديم القرابين للألهة الوثنية. وأعتبر المسيحيين كافة من قتلوا من جراء الاضطهاد الروماني شهداء، وعرف ذلك العصر بعصر الشهداء [٤]، وظل الاضطهاد قائما بالمسيحيين أوقفه الإمبراطور قسطنطين بمرسوم ميلان – Melan- سنة ٣١٣م. وقام برد كافة الحقوق الدينية للمسيحيين الذين حرموا منها، كذلك أقر بأن تعاد للكنيسة أماكن العبادة والأراضي التي صودرت من المسحيين دون إبطاء، مع الإقرار بدفع تعويض مالي كبير من الخزانة الإمبراطورية لأولئك الذين اشتروا من قبل أملاك الكنيسة [٥].

---

[١] - نظير حسان سعداوي : المرجع السابق، صـ٢٤-٢٥.

[2]- Have field , op. cit., p.371.

[٣] - نظير حسان سعداوي :المرجع السابق، صـ٢٥.

[4]- Jones , The later Roman Empire , 284-602. vol -1, Baltimore , 1986 , pp.71-76.

[٥] - وسام عبد العزيز فرج: دراسات في تاريخ وحضارة الإمبراطورية البيزنطية ٣٢٤-١٠٢٥، الإسكندرية، ١٩٩١، صـ٤٦.

وأخيرا ..... من تلك الأسباب جميعها التي أودت بالإمبراطورية الرومانية هو تسرب القبائل المتبربرة داخل حدود الإمبراطورية الرومانية في أوائل القرن الخامس الميلادي في صورة مخيفة لا يمكن مقاومتها، الأمر الذي أجبر روما علي سحب الفرق الرومانية من حامياتها بالجزر البريطانية وغيرها سنة ٤٤٩م للذود عن روما قلب الإمبراطورية نفسها ونهض البريطانيون من أهل ويلز وسط هذه الظروف العصيبة المحيطة بروما نهضة جعلتهم يحتلون مكانتهم الأصلية من التاريخ البريطاني، غير أن هذه النهضة لم تكن من القوة بحيث تقدر علي مواجهة الغزاة من السكسون، الذين توالت أغاراتهم علي الشواطئ الشرقية من الجزيرة البريطانية [١].

[١] - نظير حسان سعداوي :المرجع السابق، صـ٢٦.

- Thompson ,op. cit., vol .1,p.17-29;Cary ,op ,cit pp.778-779, Robinsons ,op. cit., pp.401-404.

المصادر والمراجع الاجنبية والعربية

اولا: المصادر الاجنبية:-

-Barrow G., & Edward .M., Documents Medieval History ,vol .7, Suffolk, 1984 .

-Bede's Ecclesiastical History of the English people Bertram colgrave and R.A. .Mynors , Oxford,1969.

-Cantor Norman F., Medieval Hist. the life and Death of Civilization , U.S.A , 1969.

-Church A.L. & Brodribbe J., The Complete works of Tacitus , New York , 1942 .

-Davis ,The British isles from the Earliest Times to the Med .Ages " in B.H, vol.II, 1930.

-E.H.D , English Historical Documents , by Whitlock , London , 1979 .

-Laud Chronicle, the Anglo Saxon Chronicle ,ed. G.N. Garmonsway, London, 1975.

-London Museum Catalogue , vol 3 , 1930.

-Monmouth G., the History of the kings of Britain , trans by Lewis Throop , London , 1978.

-Roger of Wendover , Flowers of History ,Trans from the Latin by Giles, 2vols , London , 1949.

-Stenton S.F., Anglo-Saxon England , London , 1984.

-Venerabilis Baedae , Historian Ecclesiasticam Gentis Anglorum , Oxford , clarendo , press , 1961 .

ثانيا: المراجع الاجنبية:

-Barrow G. & Edward .M., Documents Medieval History ,vol .7, Suffolk , 1984.

-Bury J.B., Hist of the Roman Empire formats foundation to the death of Marcus Aurelius (27 B.c- 180 A.D), London , 1930.

-Cantor N.F., Medieval world 300-1300, New York , 1963.

-Cantor Norman F., Medieval Hist. the life and Death of Civilization , U.S.A , 1969.

-Painter S., A History of the Middle Ages , 284-1500 , London , 1964 .

-Carter , History of Britain , London , vol. 1, 1934 .

-Carter and Mears , A Hist. of Britain to 1485 , Oxford , 1946 .
-Cary M., A Hist. of Rome down to the Reign of Constantine , London , 1954 .
-Chadwick N., the Celts , London , 1976 .
-Charles Worth M.P., The Roman Empire , Great Britain , 1961 .
-Church A.L. & Brodribbe J ., The Complete works of Tacitus , New York , 1942 .
-Com. Med. Hist., Roman Britain , by Haver field , vol .1, 1953.
-Davis , the British Isles from Earliest Times to the Middle Ages , London.
-Dawson .C., The Making of Europe , London .1935.
Dill. S., Roman society in the last century of the western Empire, London, 1925 .
-Downey .G., the late Roman Empire, U.S.A , 1969.
-Fisher , H.A.L , A History of Europe , London , 1937 .
-Haver field, Roman Britain, Com. Med. Hist., vol .1.,1953.
-Hay Denis , the Medieval Centuries , London , 1974 .
-Hodgkin E. , Italy and Invaders , Oxford , vol.2 , 1892.
-Hoyt . R & Chodorow S., Europe Middle Ages, U.S.A , 1976 .
-John Richard Green ,Short History of the English people , London, 1929.
-Jones A.H.M., The Decline world, London , 1975. .
-Katz S. , the Decline of Rome and the rise of Mediaeval Europe , New York , 1955.
-Kent J. P., & Painter k.S., Wealth of Roman world , Gold and Silver A.D. 300-700, British museum , 1977.
-Kent .J.C. & Painter K.S., Wealth of the Roman world Gold and Silver, A.D 300-700 British museum , 1977.
-Lot F., the End of the Ancient world and Beginnings of the Middle Ages , London , 1931 .
-Rainer Concise , Hist. of Britain , London , 1939.
-Chapot V., Lemona de Romaine , Paris , 1927.
Robinson C.E., A Hist of Europe Ancient & Medieval , U.S.A , 1920 .
-Rostoveff M. , A History of the Ancient world , Oxford , vol.2 , 1927.

-Sinnigen W.G. & Book E.R. , A History of Rome to A.D.565 , Six Edition, U.S.A, 1977.
-Soultar R., A Short History of Med. peoples , London ,1907.
-Stephenson C., Med Hist. , New York , 1943.
- Thompson J.W., History of the Middle Ages, 300-1500, New York , 1922.
-Trevelyan G.M , History of England , London , 1936.
-Trevelyan H.O., The Mediaeval Mind , vol.1 , London ,1936.
-Wilson P., The Anglo –Saxon, London , 1972.
-Wood ward , History of England , London , 1997.

ثالثا المراجع العربية:

-إبراهيم طرخان: تاكيتوس والشعوب الجرمانية، القاهرة، ١٩٥٩.
-إبراهيم علي طرخان : نهاية الإمبراطورية الرومانية في الغرب سنة ٤٧٦.
-إسماعيل سرهتك: حقائق الأخبار عن دول البحار، جـ٣، القسم الأول ، ط١، ١٩٢٣.
-أ.ل. رواس : التاريخ الإنجليزي، ترجمة محمد مصطفي زيادة ، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٤٦.
-أدوارد جيبون اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها جـ٢، ترجمة محمد سليم سالم، مراجعة أحمد نجيب هاشم، ط٢، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٩٧.
-بيبي : قصة البشرية : ترجمة محمد متولي ومحمود موسي، مطبعة الفكر, القاهرة, ١٩٥٧.
-جوزيف داهموس : سبع مؤرخين في العصور الوسطي، ترجمة محمد فتحي الشاعر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٩.
-جوزيف نسيم يوسف : تاريخ العصور الوسطى وحضاراتها، الإسكندرية , ١٩٨٢.
-جيمس دوورتي : الماجنا كارتا، ترجمة مصطفي طه حبيب، مراجعة زكي نجيب محمود الأنجلو المصرية، ١٩٦٥.
-حسن بيرنيا : تاريخ إيران القديم من البداية حتي نهاية العهد الساساني، ترجمة محمد نور الدين عبد المنعم، د. السباعي محمد السباعي مراجعة د.يحي الخشاب ، القاهرة، ١٩٧٩.
-حسنين محمد ربيع : دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية، دار النهضة العربية ١٩٨٣.
-سعيد عبد الفتاح عاشور: أوربا في العصور الوسطي، التاريخ السياسي، جـ١، مكتبة الأنجلو المصرية، ط٩، ١٩٨٣.
-فشر : تاريخ أوربا العصور القديمة، ترجمة إبراهيم نصحي وآخرون، دار المعارف، ١٩٥٠.

-كوبلاند – فينو جرادوف :الإقطاع في العصور الوسطي، ترجمة محمد مصطفي زيادة ، ط٣، ١٩٥٨.
-محمد عبد المنعم الشرقاوي ومحمد محمود الصياد : هذا العالم، دار المعارف, القاهرة , ١٩٥٩.
-محمود الحويري : رؤية في سقوط الإمبراطورية الرومانية, دار المعارف , ط٣, ١٩٩٥.
-مصطفي الكناني : الغزو الجرماني للجزيرة البريطانية، مؤسسة الثقافة الجامعية ، ١٩٩٢.
-محمد مرسي الشيخ، الممالك الجرمانية في أوربا العصور الوسطي، الإسكندرية ، ١٩٧٥.
-نظير حسان سعداوي : تاريخ إنجلترا وحضارتها في العصور القديمة والوسطي، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٨.
-هـ. أ.ل. فشر : تاريخ أوربا في العصور الوسطي، القسم الأول، ترجمة محمد مصطفي زيادة والسعيد الباز العريني، دار المعارف، ط١، ١٩٥٠.
-هـ:سانت موس: ميلاد العصور الوسطي ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، السيد الباز العريني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الآلف الثاني، ٢٨٥ القاهرة، ١٩٩٨.
-وسام عبد العزيز فرج: دراسات في تاريخ وحضارة الإمبراطورية البيزنطية ٣٢٤-١٠٢٥، الإسكندرية، ١٩٩١.
-ول ديورانت : قصة الحضارة، ترجمة محمد بدران،جامعة الدول العربية, جـ٣، م ٣.